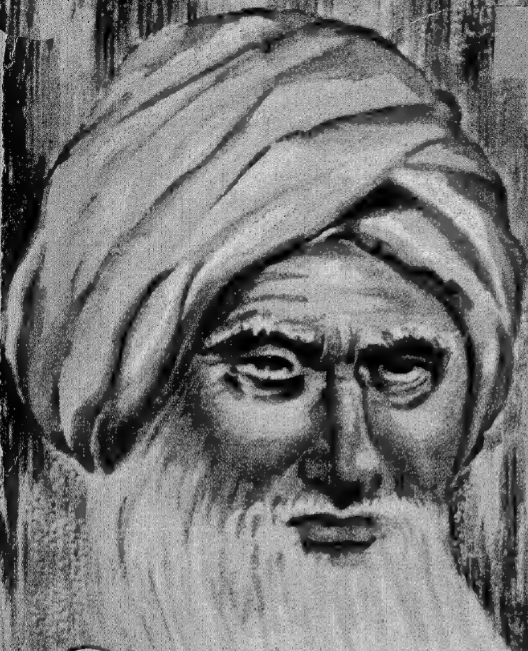


سأهت و ساهت



أبو حامد الغزالي

المفكر الشائر

بقلم: محمد الصادق عريون



اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد والنجي عباس
وكيل وزارة الثقافة سابقا

مذاهب وشخصيات

أبو حامد الغزالي

المفكر الشائر

بقلم
محمد صادق عرجون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب أوزعني شكرك بما يليق بعظيم نعمك ، وألهمني حمدك بما يبلغ رضاك ، استمطارا لغيث فضلك يا عظيم الفضل والاحسان •

وأسألك بنور وجهك الذي أضاءت له السموات والأرضين أن
تصل وتسلم على خاصتك من خيرة خلقك محمد خاتم النبيين صلاة
وسلاما يبلغان من رضاك أن تهأأ قلوبنا بحب حبيبك ، وتعرفنا
بقدره العظيم عندك لنكون في ظل لوائه يوم تكريمه منكم بلاوام الحمد

أما بعد • فهذا بحث عن الامام اللوذعي ، العليم العبقري حجة
الاسلام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه •

كتبته ملخصا اجابة لطلب المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية اذ كتب الى في مناسبة مهرجان الغزالي بدمشق
أن اعد بحثا يلقى أو ملخصه في حفل المهرجان فكتبت ذلك الملخص
ومضى المهرجان في رعاية المجلس الموقر ، - ومضى البحث الى حيث
شاء من بينهم أمره •

وكنت اذا صحبت الغزالي في كتبه وما كتب عنه حين اعداد بحث
المهرجان رأيت أن أبا حامد رحمه الله أعمق من مقال أو بحث ملخص
يعاد على عجل ، ومع أن الغزالي عظيم الحظ في التاريخ ، والكتابة عنه
كثيرة لكنه لا يزال يسع الباحثين بعلمه وعقله وقلبه •

وكنت اضمرت العزم أن أعيد النظر في كتابة بحث أوفى عن
هذا الامام بعدما رأيت تعدد متآخيه ، وأن الكاتبين لم يوفوه حقهم ،
ولا تزال فيه جوانب غائصة ، ولا يزال في كتبه موضوعات لم يمسه
الباحثون الا برفق •

لذلك كتبت هذا البحث ليكون سبطا في تاريخ هذا العبقري
العليم ، وأنى أرفعه الى شباب الاسلام في القطار الأرض ليقروا من
تاريخ اسلامهم بالعرفون به مكانة امتهم من حياة العبقري والعقريين
والله يهدي من يشاء الى سراط مستقيم •

عصر الغزالي

القرن الخامس الهجري الذي كان ممدى حياة ابي حامد الغزالي ومراحها ، ومسرحها الذي كانت تسرح في اودية معاربه ، تطوف بأفاته - أو على التحقيق - النصف الثاني من ذلك القرن الذي عاشه هذا الامام العبقري ، وقضى حياته متقلبا في ارجائه كان أشبه بمحيط يموج بشتى تيارات الافكار والعلوم والمعارف ، والفلسفات والعقائد والمذاهب والنحل وتندفع الى خضمه من جميع جوانبه روافد من التراث الفكري لتصب فيه عصارة الفكر الانساني في مدى قرون من الماضي السحيق منذ كان للعقل البشري سلطان النظم في الكون وتعمق أسرار الوجود .

فعصر ابي حامد عصر انتهت اليه صفوة الدراسات الاسلامية في القرآن العظيم وتفسيره وقراءاته ولغته وألفاظه ، وأسلوبه ، وبلاغته ، ونظمه ووجوه اعجازه ، وسائر علومه وفنونه .

كما انتهت اليه خلاصة الدراسات الاسلامية في السنة النبوية دراية ورواية وثقلا وتمحيصا وفهما وتفقهها وتدوينها . واختلاف انظار العلماء في استنباط الاحكام ومواقع الاجتهاد من أصولها .

كما وصلت اليه آثار الصحابة . وآثار تلاميذهم من أئمة التابعين علما وعملا وآثار من جاء بعدهم من أئمة العلم وطرائفهم في استنباط الاحكام للحوادث التي جرت ، وغمرت الحياة بكثرتها في الفتوحات التي كانت «بوتقة» انصهرت فيها عملية امتزاج الامم والشعوب التي استظلت على أيدي انفاحين بظل الاسلام ودخلت في ساحته مؤمنة صادقة الايمان أو مسالمة تنربص لتعرف موقفها من الأحداث المفاجئة وموقفها من هذا الدين الجديد الذي غير عليهم معالم الحياة ، وفتح لهم منافذ الهدايا ودعاهم الى معرفة حقيقة انسانياتهم - ودعاهم الى التحرر انفسكري ليتخلصوا من عبودية العقائد والافكار الموروثة ، ويعيشوا عيشة انسانية كريمة .

وهذه الدراسات في أصلي الاسلام - القرآن والسنة - هي التي استقرت على أساسها الاجتهاد التشريعي في الفقه الاسلامي في عصور الائمة الاربعة وتلاميذهم وأضرابهم من اصل الاستنباط وتخريج احكام الفروع من أصولها .

وهي التي ثارت من حولها قبل ذلك وبعده الاختلافات الفكرية في جوانب العقيدة التي نشأت على دعائهما الفرق الإسلامية وغيرها من المذاهب والنحل في أصول الدين وفلسفته .

وهي التي كانت متبعا لدراسات لغوية وأدبية ، قامت على قواعدها فنون من الادب والنقد البلاغي إلى جانب تدوين متن اللغة وتعميدها وروايتها مما حفظ تراث العربية نقيًا عن الشوائب منذ عصرها الجاهلي إلى أن كانت شغل الحياة في عاصمتي العربية البصرة والكوفة دهرًا طويلًا ، ثم تخطت إلى عدوة الاندلس في ألوان أضفت عليها تلك الرياض الإسلامية المفقودة كثيرًا من طبيعتها الفينانة المخصصة .

وعلى الجملة كانت هذه الدراسات مصدرا لتلك الموسوعات الفقهية التشريعية التي لا حصر لها على ما تبييننا به فهارس المكتبات العظمى في العواصم الإسلامية الكبرى في الشرق والغرب أينما وصل نداء الإسلام واستقرت قدم المسلمين .

كما كانت هذه الدراسات مصدرا للموسوعات الفلسفية والعلوم العقلية ودراسة اللغة والادب التي ما ج بها العصر العباسي واستبحرت في عصر الخليفة المأمون ومن بعده من الخلفاء والأمراء وملوك الشرق وحكامه في هذا العصر وعصور الدول المنفصلة عن الحكم العباسي .

وعصر أبي حامد - إلى جانب ذلك - عصر تلقى مع هذه الدراسات الإسلامية الواسعة لقاح حضارات الأمم ونتائج العقول ، وثمرات الافكار ، وسبحات الاخيلة واشراقات القلوب ماثلة في كلمات الزهاد واششباع الارواح في اشارات الصوفية ، ونزعات الاتحاد في فلتات الزندقة ، وهدى الايمان ونسك التعبد ، وحيرة الشك وسفسطة المنطق ، ومنطق الفاسفة في الجدل حول أصول الدين ، وفلسفه العقيدة في عبارات المتكلمين ، إلى جوانب أخرى زخرت بها الحياة الاجتماعية في محافل الخلافة والملك وأندية المترفين .

كل ذلك تلقاه القرن الخامس الهجري - عصر أبي حامد الغزالي - متمزجا بالحضارة الإسلامية - التي انضجها العقل الاسلامي بخصائصه الثرية في ظل القرآن والسنة وفنونها امتزاجا جعل منها حياة لها سيمها الخاصة ، فلا هي شرقية ، ولا هي غربية ولا هي فارسية أو رومانية ولا هي هندية أو صينية ولا هي عربية ، ولا هي إسلامية خالصة ، ولا هي غير إسلامية ، وإنما هي حياة انسانية تمثل معارف الإنسان وفلسفته في الحياة بخيره وشربه وغرائزه وعقله ؛ وروحه ونفسه وضلاله وهدهد في سائر أطواره العقلية والاجتماعية أكمل تمثيل .

هذه الحياة وان هي توحدت في صورتها الانسانية العامة لكنها احتفظت في ظل الدراسات الاسلامية التي لم ينقطع عنها مددها ، بخصائص عناصرها الجزئية التي تؤلفها بمجموعها كوحدة لها حقيقتها المميزة لوجودها ، فهي اشبه بالانسان في صورته البشرية التي لم تسلب عن اعضائه التي تؤلف حقيقته البشرية خصائصها الجزئية فاليد في الانسان لها مفهومها ومكانها من جسم الانسان ولها عملها فيه ، والعين والاذن والقلب ، وكل عضو من سائر اعضائه له معناه ومفهومه ومكانه وعمله ، لا يطفى عليه غيره ، ولا يأخذ معنى ومفهوم عضو سواه ، ولكنها جميعها تؤلف مجتمعة جسم الانسان - الذي يكتسب باجتماعها على نظامها الالهي ووضعا طبيعى مفهومه ومعناه ويؤدى عمله في الحياة انسانا لا عضوا في انسان .

فالمذ الحضارى في ظل الاسلام جمع اشقات الامم والشعوب بثراتها الفكرى وعقائدها وفلسفاتها واخلاقها وعاداتها وعلومها ومعارفها وثقافتها والوان تربيتها وضروب سلوكها في الحياة .

فالفلسفة الاغريق ، وتيسك الهند وحكمة الصين ، وزندقة الفرس وطقوسها الملكية واشتراخ الرومان ونظمهم الاقطاعية وسائر ما عرف على وجه الارض من نتج العقل الانساني وواثاته وجموحه وضلاله وهذائته وجميع ما عرف من نظم اجتماعية ، كلها آوت في ظل الحضارة الاسلامية الى روبة ذات قرار ومعين من طبيعة الاسلام ، فهضمها الاسلام وتمثلها في داخل حقيقته الفكرية والاجتماعية صورة انسانية موحدة الاطار وان كانت متعددة الانوان مختلفة الرسوم .

وقد كان من اثر ذلك الامتزاج الحضارى ان اصبح المجتمع الاسلامى على ترامى اطرافه . واتساع رقعته ميدانا لتفاعل تلك العناصر الفكرية والاجتماعية ، ذلك التفاعل الذي تولدت منه التيارات العقلية والروحية المختلفة التي قامت في ظلها الفرق المختلفة وفي احضان هذه الفرق نشأ الجدل ونهد علم الكلام للدفاع عن العقيدة الاسلامية بسلاح خصوصها الذين هاجموها بالجدل المنطقي تارة ، وبالسفسطة الجدلية تارات .

ومن باب هذا الجدل الكلامى دخلت الفلسفة بقضاياها في دراسة عوالم ما وراء الطبيعة ، ووضعت الالهيات والروحانيات موضع التحليل المنطقي لتقاس بمقاييس الفروض العقلية .

ومن نافذة هذه الفلسفة في دراسة النفس الانسانية والبحث في حقيقتها واحوالها وصلتها بالجسم وبعد مفارقتها تفلسف التصوف الى ان اصبح بهذا التفلسف النظرى المعقد فنا عقليا له قواعده واصبولة ومصطلحاته التي مزجته في اكثر احواله ولا سيما عند الطبقات المتأخرة

من اربابه بالفلسفة النظرية في فهم حقيقة العقل والروح والنفس وهذه الحقائق هي التي يدندن حولها هذا التصوف المتفلسف . ولم يكن ارباب التصوف العملي من متقدمي الطائفة يعنون كثيرا بهذه المباحث النظرية .

الغزالي في عصره

في هذا الحضم الفكري المتلاطم بامواج التيارات العاصفة نهض ابو حامد محمد بن محمد الغزالي عبقريا نسيج وحده فكان امة في اهاب رجل ، ورجلا في عقل امة ، وعلى مهاد هذه الحياة المواردة بأعاصير الفكر بشا ابو حامد فريدا في باب عظاميا بين اقرانه واقربائه بين ابوين فقيرين ، لفته الصوفية وهو في ريعان طفولته ، ومهد صباه فأرضعته بلانها وحضنته فالقمته ثديها ، وتفتح احساسه بالحياة بين احضانها وشم عبر الوجود في اريجها .

كان ابو رجلا فقيرا صالحا ، شديد الحب للعلم والعلماء ، يخدمهم ويجد في الاحسان اليهم والنفقة عليهم بما تملكه يده ويطوف على المتفهمة ويسالهم وكان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله ان يرزقه ابنا ويجعله فقيها ويحضر مجالس الوعظ فاذا طاب وقته بكى وسأل الله ان يرزقه ابنا واعظا .

وكان يعمل بيديه في غزل الصوف لياكل من كسبه وعرق جبينه ، تحريا للحلال الطيب في رزقه وطعمة اولاده فاستجاب الله دعاه وقبل منه ابتهاله ، فأعطاه ولدين احمد ومحمدا ، وأثم عليه فيهما نعمته ، فكانا من افذاذ العلماء ، كان احمد ، وهو اكبر الاخوين ، واعظا تلين الصم الصنخور عند سماع وعظه ، وترعد فرائض القساة لقوارع زجره وتهتز قلوب الحاضرين في مجالس تذكيره ، يبكي العميون ، ويستول على الافئدة والقلوب يوقظ سكارى الاحلام ويهدي الخباري من الانام ، ويرد الساردين الى حظيرة الايمان ويذكر الناس ، وينبه الوسنان .

ومن لطيف ما يروى في تأثير وعظه ما يتصل بأخيه الامام ابي حامد اتصالا غير مجرى حياته . روى الزبيدي في شرح الاحياء ان سبب سياحة الامام ابي حامد الغزالي وزهده في الدنيا وزخرفها انه كان يوما يعظ الناس فنخل عليه أخوه أحمد فأنشده .

أخنت بأعضادهم اذ نونا : وخلفك الجهد اذ اسرعوا
وأصمحت تهدي ولا تهتدي : وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجير الشجر حتى متى : تسن الحديد ولا تقطع

فمنذ ذلك قطع أبو حامد علاقه بالدنيا وساح في الارض على قدم
النقراء الناسكين تاركاً وراءه عريضا وصيتا داويا ومكانا بين افئاذ
العلماء مرموقا وهكذا تحققت في اكبر الولدين احدي امينتي والده الرجل
الصالح .

اما أصغر الاخوين محمد الغزالي ، فكان عالم الدنيا في عصره ، وامام
الائمة في زمنه ومدره الامة في وقته . وحجة الاسلام في سائر امصاره
ولسان الملة في محافلها بز العلماء فلم يتعلقوا بغير جواده ، ملا الدنيا
دويا باسمه ، وشغل الحياة بمؤلفاته وكتبه وآرائه وأفكاره فكان ملء
سيمها وبصرها ، ولا يزال يشغلها بحثا وراء شخصيته والكشف عن
عقريته وكان فوق ما تخيل ابوه في امينته ولو رآه في جلالة قدره لفتن
به فتنة المعجب بما هو فوق عجبه وامينته .

نشأة الغزالي

كان والد ابى حامد الغزالي رحمه الله قد اصطفى من بين من جالسهم
من زهاد العلماء والمتعبدين رجلا صوفيا استصفاه لنفسه واستخلصه
لصدقاته ووده فلما أحس ذو اجله اوصى الى هذا الصديق الفقير
الناسك بابنيه أحمد ومحمد ، وهما أمتز ماخلف وراءه في الدنيا ، وقال
له وصيته : (ان لي لتأسفا على تعلم الحظ واشتبه استدراك ما فاتني في
ولدي هذين فعلمهما ولا عليك ان تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما)
فلما مات رحمه الله اقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فنى ذلك النذر انيسير
الذي كان خلفه لهما ابوهما وتعذر على الصوفي القيام بقوتهم ، فقَالَ
لهما : (اعلمنا اني قد انفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقير
والنجرود بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما ان تلجا
الى مدرسة فانكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما)
ففعلا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهم .

ونحن نقف مع هذا النص التاريخي الذي يجمع عليه مؤرخو الغزالي
والذي كان يحكيه أبو حامد نفسه بعد ان استحكم امره وعلو قدره ، ويعقب
عليه بقوله :

(طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون الا الله) (١) متسادلين

اولا - في أية سن ترك والد ابى حامد ولديه وذهب الى رحمة الله بعد ان
أوصى بهما الى صديقة الصوفي ؟

(١) طبقات ابن السبكي

ثانياً : من هو ذلك الصوفي ؟ وما مكانته بين أهل العلم وشيوخ الصوفية في عصره ؟ وهل كان يتولى تعليم ولدى صديقه بشخصه ، فيدرس لهما فنون العلم ويؤدبهما بالعمل ، يأخذهما بشيء من أدب السلوك الذي كان يؤخذ به المرشدون في طريق انقوام ؟ وإذا صح هذا فماذا كان يدرس لهما من فنون العلم ومعارف عصره ؟ وإلى أي حد كانت استجابتهما لوصيهما في منهجه الذي عاش عليه في حياته الصوفية ؟

أو أن هذا الشيخ الوصي كان حظه معهما مجرد الإشراف على تعليمهما بالرعاية والانفاق عليهما من مالهما الذي خلفه لهما والدهما لينفق منه في سبيل تعليمهما كما يشرف - الآباء على تعليم أبنائهم بتسليمهم إلى معاهد العلم ومدارسه ؟

هذا لون من الغموض الذي يحيط بأولى خطوات أبي حامد الغزالي نحو الحياة الفكرية التي كونت شخصيته العلمية . وعلى دعائهما قامت عبقريته ، ومن آفاقها ذاع صيته واشتهرت إمامته .

والكشف عن هذا الغموض له أهميته العظمى في التمهيد إلى التعرف على حياته وتتبع خطاه في سيرته التي نحاول أن نجد فيها مفتاح عظمته .

بيد أن المراجع التي بين أيدينا من مؤلفات الغزالي وفي بعضها يتحدث عن جوانب من سيرته العلمية ، وحياته الفكرية ، والإطوار التي مر بها ، لم تسعنا بشيء من الإجابة عن هذا التساؤل .

وكذلك مؤرخو الغزالي و مترجمو حياته والمعنيون بتفاصيل سيرته من القدامى والمحدثين والخصم ابن السبكي في الطبقات الكبرى التي أطل فيها رشاء القول من حياة الغزالي بما يصلح أن يكون كتاباً جامعاً مستقلاً لو جرد من الطبقات . لم يعرج أحدهم على الحديث عن هذه الخطوة الهامة من نشأة الغزالي التي كان منها اتجاهه انكسار ، وبها بدأت حياته العلمية التي انتهت به إماماً من شيوخ الصوفية وذوى مقاماتهم العالية .

وإذا كنا لا نستطيع الإجابة الكاشفة عن شخصية ذلك النصوفي الوصي على أبي حامد وأخيه لنعرف من هو ؟ وما مكانته بين أهل العلم في عصره ، وما مقامه بين شيوخ الصوفية من اصحاب وقته ، إذ لا سبيل إلى هذه المعرفة إلا نقل التاريخ ومنطقه وليس عندنا منه شيء في هذا . فأننا نستطيع أن نستخبر مطلق الحوادث وقرائن الأحوال لتتقرب منا معرفة المواطن الأخرى من التساؤل عسى أن يكون في ذلك مايفتح للبحث باب الحقيقة على أيدي محبي الغزالي من الباحثين .

والذي تدل عليه المظان والغرائن ان والد أبي حامد ترك ولديه ماضياً الى رحمة الله وهما في سن الطفولية الشاذية المدركة لاوائل طلب العلم على نهج التربية الاسلامية في تلك العصور ، وهي مرحلة كانت تبدأ اول ما تبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويده ومعرفة احكام قراءته وتربيته مع شيء من فقه العبادات الاولى في الطهارة والصلاة وشرائطها واوقاتها وذلك يبدأ في الاعام الاغلب قريباً من السنة السادسة وهذا ما ترجمه في السنن التي تركها ابوهما فيها أو قريباً منها اعتماداً على ما يفهم من مضمون الوصية المتقدمة ، كما ترجح ان وصيهما الصوفي كان رجلاً صدوقاً ، وكان عالماً من أهل التربية الروحية والرياضة النفسية بصفة عامة ، تعويلاً على ان اباهما كان يريد بوصيته الى صديقه الصوفي أن يعوضه الله تعالى في ولديه ما فاته في نفسه من عدم التعلم ، فيجعل من ذريته علماء على نهج ما رآه ، واحبه في سيرة العلماء الذين عاشهم وخدمهم وواساهم بنفسه وماله ، فلا بد ان يكون اختياره وصي ولديه من طراز من تشافق نفسه ان يكون ولده على نهجه وطريقته بقدر ماصوره ادراكه واتسع له عقله ويتأيد ترجيحنا بظاهر قول ابن السبكي في الطبايع عند حكايته وصية والد أبي حامد الى صديقه الصوفي بتعليم ولديه وتربيتهما : (فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما) وأظهر من عبارة ابن السبكي في تأييد ترجيحنا عبارة شارح الاحياء الامام مرتضى الزبيدي فانه قال : (فاقام بهما وظلهم الخط وادبهما) فتعليم الخط والتاديب انما يكونان غالباً في نحو هذه السنن ، ولا يقوم بهما الا من كان واثقاً بحقهما سلى نهج ماكان معروفاً في ذلك الزمان من مفهوم التعليم والتاديب .

ومن هنا ترجح ان وصيهما الصوفي هو الذي تولى بنفسه تحفيظهما القرآن الكريم وتولى تعليمهما ما يتناسب مع سنهما من مبادئ الفقه المتعبدى في الطهارة والصلاة بالقدر المأمور به في هذه السن كما جاء في الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم : (مروا اولادكم بالصلاة السبع) ، وهي سن التمييز ، ويراها الفزالي طبراً جديداً (١) من أطوار وجود الانسان التي يدرك به امورا زائدة على عالم المحسوسات .

واذا صح هذا فلا بد ان يكون هذا الشيخ انصوفي قد سلك في تربيتهما عملياً مسلك الادب النفسي والتهديب الروحي عملاً وتأسيساً بحاله وذوقه حتى تاهلا لطلب العلم في مدارسهم بين طلابه المنقطعين له .

ونرجح ان يكون ذلك التأهل للاستقلال بطلب العلم في مدارسهم الخاصة كان في حوالى العاشرة من عمر أبي حامد ، ويزيد عليه اخوه احمد بما يكون بين الاخوة المتقاربين في الزمن ، وهذه السن هي السن

التي يبدأ فيها تفتح الإدراك المؤهل لطلب العلم استقلالا وفيها يبدأ
تعرف الحياة مع القرناء وفي معاشره الناس ولذلك اعتبرها الشارحون
آخر بعد طور مجرد الامر بالصلاة ، فأكّد فيها طلب العبادة ممن يعقل
القربة في آدابها في الحديث السابق على ما ورد فيه (واضربوهم عليها
لعشر) .

ويؤيد ما ذهبنا اليه قول الشيخ الصوفي الصديق لوصييه بعد
نفاد ما خلفه لهما والدهما عنده من مال (واصلح ما أرى لكما ان تلجأ الى
مدرسة فانكما من طلبية العلم) فاعتباره لهما من طلبية العلم واطمئنانه
عليهما في لجؤهما الى مدرسة من مدارس طلب العلم ، يعيشان فيها عيشة
طلبة العلم دليل واضح على انهما كانا في ذلك الحين قد بلغا سنا تؤهلها
لحياة طلبية العلم المستقلة ، ولا تكون هذه السن في الغالب فيما دون
العاشرة لاصغرهما .

ويخلص للبحث من هذا ان ابا حامد الغزالي واهاه أحمد تركهما
واندهما في رعاية وصيه وصديقه الشيخ الصوفي وهما في ريعان
الطفولية المدركة وانهما مكثا في احضان هذه الرعاية سنوات حفظا فيها
القرآن الكريم وتلقيا مبادئ الفقه التعبدى مع العمل والتأسي بسلوك
شيوخهما الصوفي الذي كان ينزل منهما في الرعاية والتأديب منزلة الوالد
البر الشفيق .

ويظهر من اخلاص هذا الشيخ الصوفي وصراحته وتلمس ما يصلح
لوصييه في طلب العلم بعد اذ عجز عن القيام به انه كان رجلا صديق ،
لانه أحس عبء الوصية ، وقدر خطر المهمة الملقاة على عاتقه ، وكان قد
نفذ النذر انيسر الذي تركه لهما والدهما من المال في امانته وتعدّر عليه
القيام بقوتها ، وخشى عليهما التخلف عن تحقيق وصية والدهما ،
فصارحهما وارشدتهما الى ما رآه اصلح لهما في حياتهما ، واستمعا الى
نصيحتيه ولجأ الى مدرسة في بلدتهما من مدارس العلم التي كان يأوى
الطلاب اليها منقطعين ، للدرس ، يقيمون في خلواتها ويرزقون فيها
برواتب يعيشون بها وكانت هذه المدارس منتشرة في كثير من البلاد
الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري .

هذا جانب من حياة أبي حامد الغزالي في طفولته مجهول المعالم ،
ولو لم يكن ابو حامد عبقريا ممتازا في تاريخ الفكر الاسلامي لما كان في
جهالة طفولته غرابة ، ولكن امتياز الغزالي الذي بهر الحياة في عصره
والاعصر التي توالى بعده هو الذي جعل لهذا الجانب من حياته أهمية
خاصة تبعث الاسف لدى كل باحث في سيرته ليتظم حلقاته في سلك

متواتر ، تستند فيه كل حلقة طارئة الى حلقة اخرى سابقة ، لان حياة العباقرة تتواكب خطواتها في نمط من التماسك يحمل في طياته ارهاصات لما يأتي بعدها من اعجاز :

بيد ان هذه الازهاصات قد تفرعها الحوادث الاجتماعية المتلاحقة في البيئة التي نهد فيها العبقرى فلا يلتفت اليها التاريخ ، فتبقى مجهولة ابدا أو الى حين .

وعصر أبي حامد المفعم بالاحداث الفكرية والاجتماعية المليء بالاثمة من العلماء والزهاد والفقهاء والفلاسفة والمتكلمين وزعماء الفرق واهل الجدل والاديان والشعراء ، برساتر قادة الفكر ، وبيئته العامة في هذا العصر ، وفي قطره وبلده وبيئته الخاصة في أسرته الفقيرة المكسودة المنزوية في ذرى الصلاح وتواضع التقوى المتصوفة بمجرد المحبة للصوفية وخمعتهم وتتبع آثارهم في آداب سلوكهم كل ذلك مما يضعف صوت الازهاصات ولا يساعد على التفات التاريخ الى تدوين مالمع في طفولية أبي حامد واضرايه ممن نهضوا في هذا الجو من الحياة .

ولهذا لا يبين التاريخ الحديث الجاد عن هؤلاء العباقرة - عند ما ترغمه عبقرياتهم الداوية على ان يفرد لهم في كتاب الزمن صفحات - الا منذ يبدؤون صلاتهم بالجمع الفكري في معاهده الدراسية « الرسمية » أو يبدؤون في عمل خالده يغير وجهه الحياة ويوجه التاريخ، وللانبياء والرسل في ذلك المثل الاعلى .

ونحن نرجح ان هذه المرحلة بدأت في حياة أبي حامد الغزالي عندما تحدثت اليه والى اخيه وصيهما الشيخ الصوفي في صراحة واخلاص عند نفاد ما تركه لهما أبوهما عنده من مال قليل وأنه رجل فقير ، يعيش زاهدا على قدم اتوكل ، لا مال له فيواسبهما منه ، وأن أصلح ما يراه لهما ان يلجأ الى مدرسة لانهما من طلبة العلم .

ونرجح كذلك ان هذه المدرسة التي لجأ اليها بإشارة شيخهما الصوفي هي المدرسة الرسمية الاولى التي تتلذذ فيها أبو حامد في دراسة الفقه الشافعي ببلدة طوس على أول استاذ «رسمي» عرف في تاريخه ، وهو الامام احمد بن محمد الراذكاني وأن لم يكن فيما بين ايدينا من المراجع ما يدل على أن « الراذكاني » كانت له مدرسة أو كان استاذ في مدرسة وانبا المعروف أنه كان من فقهاء الشافعية في بلدة طوس ، بلد أبي حامد الغزالي ولهذا يقول ابن السبكي في الطبقات : « قرأ أبو حامد في صباه طرقا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد « الراذكاني » تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين ويقول في ترجمة الراذكاني : وهذا الراذكاني أحد أشياخ الغزالي في الفقه »

وقراءة أبى حامد طرفا من الفقه فى صباه ببلده معقول ان تكون بعد مرحلة الطفولة التى مرت فى حضانة معلمه الأول الشيخ اصنوفى ، وهذا هو الوقت الذى لجأ فيه أبو حامد مع أخيه الى مدرسة يحصل لهما منها قوت يعينهما على وقتها استجابة لنصيحة شيخهما .

فالراذكانى اذا لم يكن له مدرسه خاصة ينوس بها فلا أقل من أنه كان فى بلده مزجما لفقه الشافعية يدرسه فى مدرسة ، أية مدرسة أو مدرسه فى بيته أو مسجد بلده على عادة علماء عصره لتلاميذ مدرسة كانت معلومة للطلاب العلم ، يلجأون إليها ارتفاق بما هو موظف الاساتذتها وطلابها من من خبرات يحصل لهم منها ما يعينهم على دراسة العلم وطلبه وتكون هى التى لجأ أبو حامد وأخوه إليها وكانت السبب فى سعادتهما وعلو درجتهم .

الغزالي فى مهاد الصوفية

استقبلت الصوفية أباحامد الغزالي فى مهده حياته بين احضان أبوين فقيرين صالحين يعيشان من كسب اليد وعرق الجبين ، تحرياً للحلال الطيب من رزق انقوت ، وكان أبوه محبا للعلم والعلماء ، عاشقا للصوفية والزهاد يؤاسيهم بما يستطيع الحصول عليه من قليل الكسب بغزل الصوف يقوم بنفسه على خدمتهم ، ويلوذ بهم ، ويلزم مجالسهم ويسمع وعظهم يتأثر بحالهم ويتمنى على الله ان يرزقه ولدا يكون من العلماء السالكين طريقهم ولما لم تستطع الحياة بفسحة العمر بعد رزقه ولديه أحمد ومحمد أوصى بهما الى صديقه وصفيه الشيخ الصوفى الذى كلفهما منذ ان شباعن المهدي ، ودرجا فى مدارج الطفولية حتى أوصلهما الى طلب العلم فى معاهده الدراسية .

فأبو حامد الغزالي تلقى أول ما تلقى آداب الصوفية وسلوكهم علما وعملا بقدر ما سمحت به طفولته الغضة المفتحة كالزهر فى مطالع الربيع على يد رجل لم يعرف عنه الا انه صوفى كان صديقا لآبيه ، ثم وصيا عليه وعلى أخيه ، وقد صلق الرجل معهما فى وصايتهم . ولا بد ان يكون قد صديق معهما فى صوفيته ، فلقد علمها آداب السلوك وعلمها آداب الطريق فى سنن تكون مرآة النفس باقية فيها على جلاء الفطرة مصقولة لاقطة .

ومرأيا النفوس الانسانية لاتتزامم فيها الصور على كثرتها ولا يحجب بعضها بعضا ، فلكل صورة انطبع فى أديمها مكان يحفظها بخصاصتها التى استقرت عليها ، وقد تبرزها المرآة عند استدعائها اذا توافرت أسباب ظهورها .

فالتسمت الصوفى والسلوك الصوفى ، والادب النفسى على النهج

الصوفي كان اول صورة انطبعت في مرآة النفس والفكر عند أبي حامد الغزالي ، وهي أول نقطة بدأ منها خط سيره في الحياة الروحية والفكرية التي كانت مجالاً لعبقيرية حجة الاسلام .

ومن غرائب اسرار القدر الالهي في حياة أبي حامد رحمه الله تعالى ان ما كان أول نقطة بدأ بها خط سيره في الحياة كان بمنصره الاصيل آخر نقطة انتهى عندها خط سيره في هذه الحياة ، اعنى أن ابا حامد بدأ - عن غير قصد منه - صوفياً ، وانتهى بقصد ونية وبصيرة صوفياً ، والفرق بين الصورتين ، صورة البداية ، وصورة النهاية هو الفرق بين صورتين انطبعتا في لوحى مرأتين اختلفتا سعة وضيقاً ، وصغراً وعظماً ولكن خصائص الصورة وملامحها الاصيلية واحدة في الحالين .

فهل كان لآخر حياة أبي حامد الصوفية التي انتهى اليها بعد تبصر وبحث وتبحر في العلوم والمعارف ارتباط بأول حياته التي بدأ بها صوفياً بأدب التربية وعوامل البيئة دون اختيار أو تفكير - ؟ وهل كان لأول حياة أبي حامد الصوفية تأثير شعورى في آخر حياته الصوفية المفكرة على معنى أن الصورة التي كانت منطبعة في مرآة نفسه دون اختيار منه أو تمهيد لذلك الانطباع انذى كا نتيجة لمجرد ملاقات المرآة النفسية للصورة الصوفية المصغرة هي التي ظهرت وكان لا بد لها أن تظهر عندما توافرت لها أسباب انظهور في اطار مرآتي أعظم اتساعاً وأجود صقلاً وأصفى اديماً بما لا يقاس به اطار الصورة الاولى الا كما يقاس العقل الانسانى عند الطفل في مهده رضاعه بالعقل الانسانى عند العبقري في ذروة تفكيره وذكرائه ؟ .

فلو لم تبدأ حياة أبي حامد الغزالي رحمه الله بصورة من الصوفية الساذجة ، ترسبت في خفايا نفسه لما انتهت الى هذه الصوفية المبصرة التي تملكك عليه تفكيره وهو في ذروة عظمتها وأخذت بمجامع شعوره وحسه

ليس هذا حتماً من الامر في نظر المنطق العقل ، لكن العلم - والعلم بأعم من منطق العقل - لا ينكره ، لان العلم يؤيد أثر الترسيبات النفسية في ظواهر الوجود النفسى ، وظهورها عند استدعائها في الوقت المناسب أكثر مما يؤيد أثر الترسيبات العقلية في ظواهر الوجود العقل ، لان العقل يعتمد في مدركاته على منفذ الحس ، وهي متغيرة لاثبات لها في خزانة العقل ، وأما النفس الانسانية ، اعنى الروح الحية المدركة بذاتها فهي لا تعتمد في ادراك الحقائق وتصورها على أمر خارج عنها لانها تدركها بذاتها وطبيعتها ، فادراكاتها ثابتة لا تتغير ، بيد أنها قد تحجب فلا تظهر ، فيتوهم أنها ذهبت ، وقد يدخل بطريق الاشتباه في المدركات لا في نفس الإدراك .

هذا التوافق بين بدايه أبى حامد الغزالي ونهايته هو - فى نظرنا - أول خطوة فى الاتجاه الصحيح الى الاعتداء لمرفة مفتاح شخصيته وهو اتجاه مقبول عنه لم نعلم أحدا من الباحثين فى حياة الغزالي وقف عنده وقفة بحث وتحليل ، تبين معالم الطريق من أوله لدراسة حياة هذا الإمام المبكرى مع أنه أحرى جوانب الغزالي بالنظر لأنه جانب انفراد به من بين سائر العلماء والمفكرين الافذاذ ومفاتيح شخصيات قادة الفكر انما تكون فى الجوانب التى انفردوا بها ولم يشتركهم فيها غيرهم من العباقرة .

قد يبدو هذا الجانب ضئيلا فى حياة الغزالي أو حياة غيره لو كان له فيه شبيه لا يستحق نصب الدراسة ومتاعب البحث ، ولكن كم من أمر صغير فى مظهره كان فى حقيقته مصدرا لعظام الأمور ؟؟

وكان الباحثين فى حياة أبى حامد الغزالي - على كثرتهم وتعدد مشاربهم - شغلوا بأبى حامد العليم المفكر الباحث المتطّار ، الحجة الفيلسوف المتكلم ، الجنلى ، الفقيه الأصولى الصوفى بعلمه وعقله ، انعاليم العقول فى تصوفه ، عن أبى حامد الصوفى بتربيته وبدايته .

ومن العجيب أن أبى حامد نفسه رضى الله عنه أرح لحياته لمطاطب وفصل ولكنه فى هذا التاريخ شغل بعلمه وعقله عن صوفيته فى بداية تربيته ونشأته ، فبقيت تلك المرحلة مجهولة المعالم فى حياة أبى حامد رحمه الله تعالى .

والامر ما فى غيب الاقدار عاد أبو حامد - مختارا أو غير مختار - فى نهايته من حياته الداوية الى مكان من تقدير الله له فى بدايته الهادئة

شخصية الغزالي التاريخية

وشخصية أبى حامد التاريخية عجيبة من عجائب الابداع الالهى فى نوع الانسان ذلك لانها شخصية يراها الناس بادی الرأى اوضح ما تكون شخصية لشهوتها التى طبقت الافاق ، ولا تبارها العلمية التى ملأت الإرجاء ، ولا امتاز به صاحبها من حدة الذكاء الحارق ، ومن صبر على مكابدة العقول واقتحام لمج العلوم والمصارف والافكار فى كافة انوانها بنهم لاشبع ، وجراة على اقتحام المضائق الفكرية العصبية ومغامرة المزالق الفلسفية فى غير تهيب ولا وجل مع قوة عارضة فى الجدول والمخاجة لم تهزم قط ، حتى اتفقت كلمة مؤرخيه ، انه كان أنظر أهل زمانه وأوجد أقرانه قام فر العيون مثله ولم يرهو مثل نفسه .

يصفه شينخيم المؤسسين لشخصيته العلمية الإمام أبو المعالى عبيد

الملك الجوينى امام الحرمين ، وكان مستأجرا غيره بلا مدافع بانه « بحر
مصدق » ويرى « بحر مغرق » وكلا المعنيين صحيح واقع فى حياة ابن
حامد الغزالى .

وكان امام الحرمين ينبجس به ويفخر بتلمذته له الى أن توج القدر
الالهى الحكيم ذلك كله بهذا التمسك الصوفى المتبطل فى محاريب
العبودية المشرقة الذى بلغ فيه ابو حامد رضى الله عنه مرتبة من الكشف
الروحانى عزيزة المنال - كما يقول - لا يصح البوح بها لأن لم يكن من
العلماء وهو يكتفى فى الأخبار عنها لأن لم يذوقها بانشاد بيت من الشعر
الرمزى يمثل موقف أبى حامد من نفسه فى بهجة اشراق روحه وتفتح
قلبه لحقائق الوجود الغيبية ، وموقفه من حياة الناس وديارهم التى أطرحها
وأعرض عنها بعد أن جمعت له زخارفها فى قبضة يده راضيا أكمل الرضا
عن صوفيته التى تسامت به فوق مظاهر العلو المبادئ الدنيوى
الذى كان يغمى عصره وكاد يغمى فى عصره .

فكان ما كان مما لست اذكره : فظن خيرا ولا تسأل عن الخير .

هذه الشخصية الواضحة بخصائصها وصفاتها فى بادىء الراى
هى نفسها أغمض ما تكون شخصية فى تحليلها وتعرف حقيقتها ووضوحها
فى مكانها الصحيح من الحياة .

ومن ثم لا نجد التاريخ يصنع لابى حامد الغزالى صورة واحدة
مستوية المعالم. ولكنه يصوره فى صور كثيرة تتجاوزها الآراء والمذاهب .

فشخصيته كانت ولا تزال معترك الاقلام ، وميدانا لاسلالت
الالسن منذ دوى اسمه فى الآفاق ، وسارت مؤلفاته مع الشمس حتى
بلغت من دنيا العلم والعقل ما قصرت دونه مصنفات العلماء والحكام .

فهو فى نظر محبيه المعجبين بعقله وزعمه ، العبقري النظار الذى
حطم العقول بقوة عقله . والعالم الاصولى الفقيه المتكلم الذى أرسى قواعد
المقائد على دعائم المنطق الهرمانى وحماها بسنياج الحجة الباهرة والجدل
الذى يقتحم طلي الخصوم قلاعهم اقتحام مغالبة ليهدم بقوة حجته ما أقاموا
من حصون الشبه والباطيل والفيلسوف الذى خنعت له كبرياء الفلاسفة
ودانت لعقله عصميات الفلسفة فظهر على أسرارها وكشف عن خبيثاتها
ويهرج زيفها ، وحقق من عويص قضايها ما عجز عنه فحولها وجهها
بذتها والصوفى الروحانى والحكيم النفسانى الذى تجلت بنور قلبه ،
واشراق روحه أسرار الشريعة ونحكم بتشريعها فأبان عنها فى انبيائه
بما لم يجر منه فى شوطه جواد من الأئمة والحكماء مما دفع كثيرا من محبيه
من اعلام العلماء الى المبالغة والافراق فى وصف هذا الكتاب الفريد فى

بأنه . روى الشيخ عبد التآدر العبدروس صاحب التعريف بالإحياء عن
الامام النووي - وهو من هو امامة وفضلا ، وعلمنا وزهدا وجهارة بالحق -
انه قال : (كاد الأحياء يكون قرآنا) لو كانوا قائل هذه الكلمة غير الامام
النووي أو لو كان الامام النووي على غير ما يعرفه التاريخ من جلالة
القدر في الاسلام لقلنا انها كلمة شاعرية اكتست ثوبا فضفاضاً من
مبالغات الشعراء ولكن اذا صحت فانها تدخل في باب المحبة وباب المحبة
واسع الفجران فيفتقر في المدائح للمحبين ما لا يفتقر لسواهم ، وهي
اضخم عنوان على مكتبة الغزالي في تاريخ الفكر الاسلامي .

ونحن وان كنا نجعل كتاب « احياء علوم الدين » ونعرف له قدره
ولا سيما من جهة ما تضمنه من مباحث نفسية وغوص على أسرار الشريعة
ببيان ما اشتملت عليه احكامها من حكم ومما فيه من اشراق روعي ،
ونواراتيه مشرقة في مباحثه لكننا لا نقر هذه المبالغات مهما كان مصدرها

ولذلك كان المحافظ أبو الفضل العراقي مقاربا اذيقول في تخريجه
لاحاديث الأحياء (انه من أجل كتب الاسلام في معرفة الحلال والحرام جميع
فيه بين ظواهر الاحكام ونزع الى سرائر دقت عن الافهام ، ولم يقتصر
فيه على مجرد الفروع والمسائل ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر انرجوع
الى الساحل بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن) ومن المبالغات انطية
المقبولة في وصف هذا الكتاب النفيس ما ذكره التاج السبكي في الطبقات
من قول بعض المحققين :

(لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في
تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والاثار غير كلفي) فهذا كلام جميل
لانه يذكر خصائص كتاب الأحياء التي امتاز بها عن كثير من المؤلفات
الاسلامية ، وهي جمعة بين النقل والنظر والفكر والاثار ، ذلك مما امتاز
به الغزالي في كثير من مؤلفاته مما يدل على أنه كان بطبعه فيه النفس
غواصا على المعاني الدقيقة التي تتصل بدقائق النفس البشرية .

ومما يدخل في هذا اللون في مدح كتاب الأحياء قول صاحب دائرة
المعارف النوجدية من كتاب عنصرنا (هو أفخم اثر اسلامي بعد كتاب الله
وسنة رسوله ، وهو ابداع ما وضعه المؤلفون في الاسلام لم يوضع قباه
ولا بعده مثله وهو آية من آيات التأليف و غاية من الغايات التي تقصر
عنها الهمم)

ومن أحسن ذلك واعدله قول شيخنا شيخ الاسلام وشيخ الازهر
الاساذ الشيخ محمد الحضر بن الحسين التونسي رضى الله عنه (فلا
عجب أن يبلغ كتاب الأحياء في الغوص على أسرار الشريعة والبحث عن

دقائق علم الاخلاق وأحوال النفس غاية بعيدة فكتاب الاحياء من صنع عقل نشأ فى قوة ورسخ فى علوم الشريعة وخاص فى العلوم العقلية فوقف على كبيرها وصغيرها وفرق بين سليمها ومعيها وخلص بعد هذا من كدور الهوى وظلمات الحرص على عرض الدنيا .

واذا وجد العلماء فى كتاب الاحياء ما أخذ معلومة فأنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى كتساب الاحياء فضلا وسمو منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناولوه العدوان يظهر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره) .

هذا كلام مشرق بنور العدل والفضل ، تضجعت به قريحة رباهـا الايمان وزينها العلم وحكمها العقل . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) .

والصوفية قضيهـم بقضيضهـم متوالفون على اجلال أبى حامد رضى الله عنه ووضعه فى مرتبة القطبانية تارة والغوية أخرى والصديقية مرة فيما هو من أعلا المراقب والمقامات عليهم .

وهم يروون فى شأنه عن أكابر شيوخهم روايات وغرائب ، لا سبيل الى عرضها بالتفصيل فى بحث يقصد الى تصوير شخصية الفزائى المفكر الذى خاض بحار العلم والمعارف والفنون الفلسفية فى جراته وجسارة وقوة تعتمد على الاخلاص والبحث العميق ثم خرج منها بعد أن عمل بأصولها وفروعها وأفاض على عصره من ينابيعها - زاهدا فى عريض جاهها وواسع صيغها .

والصوفية - كثيرهم - فى شأن الفزائى - منهم المقتصد فى كلمه عنه الذى ينظر اليه والى آثاره فىرى فيه العالم المحقق الذى أضفى على التصوف من عقله وعمله ما قرب منهجه للناس وجببه اليهم وما أكسبه كثيرا من النظر العقلى المبدد لكثير من الشبه الى جوانب خاصة من الاشراق الروحي والصفاء القلبي النابع من فطرة الفزائى حتى جعله فنا من المعارف الكسبية التى تؤخذ من لباب الشريعة والتى يمكن أن ينالها بشراتها كل من جاهد نفسه وصفى باطنه من غوائل الكدورات المادية ، وطهرها من رذائل الاخلاق وتسامى بها عن الكون الى دار الغرور وهنذا رد للتصوف فى الاسلام الى حقيقته الشرعية كما كان عليه متقدمو المتصوفة فى الاسلام ، فأبو زيد البسطامي وهو أحد سادات رجال الرسالة القشيرية التى هى أجل ما ألف فى التصوف يقول (لو نظرتم الى الرجل يظهر فى آلهواء فلا تفتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الامر والنهى وحفظ الحدود والقيام بالشرعة) .

وأبو القاسم الجنيد امامهم المقتدى به يقول (الطرق كلها مسدودة على الخلق الا طريق اقتفاء آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلمنا هذا بالكتاب والسنة) .

وأبو حمزة البغدادي امام المتوكلين والزهاد - عندهم - يقول (لا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وسائر أحواله) .

ويقول أبو سعيد الخراز كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل . والغزالي رضى الله عنه يذكر هذا في كتبه ولا سيما كتاب « الاحياء » ويكثر من هذه النقول عن أكابر الصوفية ومتقدميهم ليحقق نظريته في تأنيخ العلم والعقل مع التصوف في الاسلام وليرفع الحجب التي ضربها بعض متفلسفي الصوفية حول التصوف حتى جعلوه الغافرا وطلاسم يترجمون عنها بمبارات جامحة عن محجة العقل لا تخضع لمقاييس الشريعة وموازين العلم .

ومن هؤلاء المقتصدين في عباراتهم عن الامام الغزالي الاستاذ المحقق العارف الامام أبو العباس الرسي أكبر تلاميذه أبي الحسن الشاذلي : وقد سئل عن الغزالي فقال : اني أشهد له بالصدقية العظمى .

فأين هذا الكلام الرصين الخارج من خزائن التحقيق من قول بعضهم كما نقله الياقبي « لو كان نبي بعد النبي لكان الغزالي » فما هذا يا أهل الله ؟ والذين يلوذون في الدفاع عن هذا الكلام بكلمة « لو » إنما يواعدون بها في أقصى جهدهم بين صاحب هذا الكلام وبين الخروج من نطاق الايمان ، ولو لم يكن في هذه العبارة المغرقة سوى انها تضع الغزالي رحمه الله موضعا لا يرضاه الغزالي العالم الفقيه لنفسه لكفى في الحكم عليها أنها لا توزن بميزان العقل الشرعي .

ومما يقع بين بين من روايات الاكابر ما رواه ابن السبكي في الطبقات عن الشيخ العارف امام الصوفية في عصره أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم. وقد باهى موسى وعيسى عليهما السلام بالامام الغزالي وقال لهما افى امتكما مثل هذا ؟ قالوا : لا ، ومخرج هذا ونحوه في نظرننا - اجلال الحب وتعظيم المحبين .

وهذا اللون كثير جدا في ترجمة أبي حامد الغزالي مبثوث في كتب الطبقات وتاريخ الرجال يتناولوه مريدوه وعاشقوه مذهبه من المتصوفة والمتكلمين ، ونحن لم نورد بعضه الا على سبيل الشاهد لما احتف بسيرة الغزالي من إقاول .

وبحسبك ما تقرأ من كلامهم من طبقات ابن السبكي ، والفتوح البغدادية
والسمعاني وابن عساكر وابن النجار والحنبلي ، والفتح البغدادية
وعبد الغافر الفارسي والشهرستاني وغيرهم ممن لا يحصون كثرة
فأبو حامد عند محبيه تصور شخصيته كلمة تليده محمد بن يحيى التي
يقول فيها « الغزالي لا يعرف فضله الا من بلغ أو كاد يبلغ السكالم في
عقله ، كما يصورها تعقيب التاج السبكي على هذه الكلمة فيقول « يعجبني
هذا الكلام فإن الذي يجب ان يطلع على منزلة من هو أعلى منه في العلم
يحتاج الى العقل والفهم ، ولما كان علم الغزالي في الغاية القصوى احتاج
من يريد الاطلاع على مقداره أنه يكون هو تام العقل وأقول : لا بد مع
تمام العقل من مدائة مرتبته في العلم لمرتبه الآخر ، وحينئذ فلا يعرف
أحد بما بعد الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي اذ لم يعي
بعده مثله » .

وهذا الكلام لا يعجبنا من التاج السبكي ، لانه اذا أصبح في بعض
مقدماته فهو غير سليم في انتاجه لان قوله وحينئذ فلا يعرف أحد جاء بعد
الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي اذ لم يعي بعده مثله فاق كل
مبالغه وجاوز الدقة في التعبد الى الاغراق والتوسع الفضفاض وخرج
الى التحجير على فضل الله اذ ليس في الدنيا بشر يجوز أن يقال في حقه
انه لم يعي بعده مثله سوى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم
وكلام ابن السبكي حكم على الامة الاسلامية بالعقم وهي أمة متصلة المدد
لا ينقطع عنها النبوغ ولا ينضب في معيها نحيير العبقرية وغفر الله للمحجين
جمحات الاقلام .

أما متنقصو أبي حامد رحمه الله تعالى فأكثرتهم من الفقهاء والمحدثين فكما
حمل الحب المحبين على المبالغة والاغراق في مدح أبي حامد والثناء عليه
حمل الشائنين الشنآن على المبالغة في التنقيص والعيب ، وقد كان أبو حامد
نفسه شديدا على الفقهاء والمحدثين يتناولهم بقلمه ولاذع عباراته ويتنقص
دينهم وأخلاصهم ويعيب عليهم كثرة تفريغهم لمسائل الفقه وكثرة روايه
الحديث وتكالبهم على مظاهر الدنيا ومناصبها وصيبتها ، فدفع ذلك فريقا
منهم الى أن يقسو عليه ويتنقصه ويتتبع كلامه ، يتصيد منه العثرات
حتى رماه بعضهم بأنه كاذب ينسلك من الدين ، وأنه طوى بصوفيته بساط
الشريعة كما يقول أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه « نقد العلم والعلماء »
المشهور باسم « تلبيس إبليس » وكما صرح به ابن القيم في تعقيبه على ما
ورده أبو حامد من خكايات وأحوال لبعض مشيخة وأحوال الصوفية
وأكابرتهم ونكتفي بذكر هذا المثل شاهدا على ذلك فقد ذكر أبو حامد أنه

ضاع لبعض الصوفية وند صغير فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال : اعتراضى عليه أشد على من ذهب ولدى .

قال ابن القيم . لقد طال تعجبي من أبى حامد هذا كيف يحكى هذه الحكايات على وجه الاستحسان لها والرضا عن أصحابها ويعد البدعاء والسؤال لله تعالى اعتراضاً ؟ لقد طوى بساط الشريعة طياً إذ ادعاء مشروع بالإجماع ، وعلى هذا الفرار جرى ابن القيم وأكثر جداً من هذا اللون فى النقد

أما مشيخة الامام أبو العباس بن تيمية ، فقد نقد الغزالي نقداً علمياً وانصفه فى نقده وكانه أقوم قليلاً واحسن تأويلاً للكلام الغزالي وقد انتهى معه بحسن الظن فيه وقال انه عكف فى آخر حياته على قراءة البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة .

وعبارته فى كتابه . (جواب أهل الايمان بتحقيق ما اخبر به رسول الرحمن من أن .

قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ، ويجعل اخبار الانبياء علم النقص ، ويقول : ان الكلام والمجلد ليس فيه بيان حق بدليل ، بل انما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ويجعل أهله من جنس خفراء الحجاج ويجعل علم الفقه ليس غايته الا مصلحة الدنيا ، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس ، وتكلموا فيه . كما تكلموا على ما ذكره فى هذا الكتاب (جواهر القرآن) وغيره من كتبه من معانى الفلسفة وجعل ذلك هو باطن القرآن وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك فان هذا مما يندقش مقصود الرسول أمور عظيمة كما تكلموا على ما ذكره فى النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها . . . ثم قال بعد أن بين أن قبول الغزالي فى قل هو الله أحد أحسن من قول كثير من الناس فيها وأنه اقرب الى الصواب : وأما جعله علم الفقه خارجاً عن الصراط المستقيم والعمل بالصالح وجعل علم الادلة والحجج خارجاً عن الايمان والمعرفة بالله واليوم الآخر فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف ، وأبو حامد انما ذكر هذا لانه يقول انه انما يعرف معانى ذلك بطريق التصفية فقط لا بطريق الخبر النبوى ، ولا بطريق النظر الاستدلالي فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل وهذا مما انكره عليه الناس وصنفوا كتباً فى رد ذلك كما فعلت جماعات العلانية وتكن عذر أبى حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق فى ذلك ولم يعلم طرقاً عقلية غير ذلك فنفى ان يعلم بطريق النظر فيه .

وإما الطريق الخيرية انبوية فلم يكن له خيرة بما صبح من الفاظ الرسول وبطريق دلالة الفاظه على مقاصده ، وظن بما تشارك به بعض أهل الكلام واغلسه ان الرسول لم يبين مراده بالفاظه ، فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقل والسمعى وظن انه المطلوب يحصل بطريق التصفية واعمل فسلك ذلك فلم يحصل له التقصود ايضا فرجع فى آخر عمره الى قراءة البخارى ومسلم .

وقد تتبع المنكرون عى ابنى حامد تأليفه بالنقد واحصوا عليه كلمات ومعه . مستنبه وتعلقوا به عليه وقد انتفض ابو حامد نفسه للاجابة عن كثير من اعتراضات المعارضين ونقد الناقدين ، وتصدى تلاميذه ومريذوه للاجابة عنها بما يدفعها عنه أو ينفع ما تحتمله من ايها ، وأهل ابو حامد فى اجابته عن ذلك كتبوا سماه جلال الدين السيوطى فى الجزء التاسع عشر من تذكركه « الانتصار لما فى الاحياء من الاسرار وسماه بعض العلماء « الاملاء فى اشكالات الاحياء » وسماه آخرون « الاجوبة السمسكة عن الاسئلة المهمة » وهو كتاب واحد وقد جاء فى مقدمته : (سالت بركة الله لمراتب العلم تصعد مراتبها وقرب للمقامات الولاية تحل معانيها فى بعض ما وقع فى الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه وتم يفتى بشيء من المخطوط الملكية قدسحه وسماه وأظهرت التحزن لما شئت به شركاء الطعام وأمثال الانعام وجماع العوام سفهاء الاحلام وذعار أهل الاسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعة وافتوا بمجرد الهوى بأطراحه ومنايذته ونسبوا عليه الى ضلال واضلال ونبدوا قراءه ومحتجيه بزيف فى الشريعة واختلال ، قال الله ، انصرفهم وما بهم وعليه فى العرض الأكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ٠٠٠ الخ وهذه الاصماء الثلاثة اسم لكتاب واحد وقد قصدنا بهذا التنبيه لمن عسى أن يقع نظره على فهرست مؤلفات الغزالى فيظنها كتابا متعددة وهى اسماء لمسمى واحد ، ونظن ان الغزالى سماه الاملاء فى اشكالات الاحياء وهى تسمية معبودة عند المتقدمين مأخوذة من طريقة تأليفهم . والغزالى نفسه يسمى كثيرا من كتبه بالاملاء وقد أطلق فى هذا الكتيب نفسه على أشهر كتبه وهو كتاب الاحياء مع اتساعه وضخامته الاملاء الملقب بالاحياء كما نظن ان التسميتين الآخرين من وضع تلاميذه ومريذه .

وكان اظهر من نقد الغزالى وأشدهم عبارة فى حقه الامامان ابو عبد الله الذرى الفقيه المالكي المتربى وابو بكر الطرطوشى وقد ساق ابن السبكي فى الطبقات كلامهما ورد عليه بما رآه ، ونحن نقبس مما ذكره ابن السبكي ما ترى انه يدخل فى بحثنا ويتسق مع رأينا .

قال الامام أبو عبد الله المازرى المالكي . محييا لمن سأل عن حال

كتاب أحياء علوم الدين ومصنفه ، هذا الرجل - يعنى الغزالي ، وإن لم يكن قرأت كتابه فقد رأيت تلامذته وأصحابه فكل منهم يحكى لى نوعا من خاله وطريقته فتلوح من مذهبه وسيرته ما قام لى مقام العيان . فأننا اقتصر على ذكر حاض الرجل وحال كتابه . فان كتابه متردد بين هذه والفلاسفة والمتصوفة وأصحاب الإشارات فأن كتابه متردد بين هذه الطرائق لا يعدوها وهو أعرف بالفقه منه بأصوله ، وأما على الكلام الذى هو أصول الدين فإنه صنف فيه أيضا وليس هو بالمستبحر فيها ولقد فطنت لعدم استحباره وذلك أنه قرأ الفلسفة قبل استحباره فى فصوله الدين فأكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعانى وتسهيلا للهجوم على الحقائق لأن الفلاسفة تمر مع خاطرها ، وليس لها حكم شرعى ترعاه ولا تخفى من مخالفة أئمة تتبعها .

وقد أطال التناج ابن السبكي فى الرد على المازرى وجعل محور رده تعصب المازرى لمذهبه فى اصول الدين والعقيدة وهو أشعرى ، وفى الفقه وهو مالكي والغزالي أمام متحرر وهو أن كان يأخذ بمذهب بلاشعرى فى اصول الدين والعقيدة لكنه (وصل من التحقيق وسعة الدائرة فى العلم الى المبلغ الذى يعرف كل منصف بأنه ما انتهى اليه أحد بعده ورثه) خالف أبنا الحسن الأشعرى فى مسائل من علم الكلام ، والأشاعرة وخاصة علماء الغاربة منهم يستصعبون هذا الصنع ولا يرون مخالفة الأشعرى فى كثير لا قليل وكذلك ربما ضعف الغزالي مذهب مالك فى بعض المسائل كما صنع فى المصالح المرسلة .

ثم أخذ ابن السبكي فى تزيف كلام المازرى تفصيلا متتبعا جزئياته بما لا يخلو من التحامل والمصيبة المذهبية .

والحق أن كلام المازرى فى الغزالي كان يكفى فى رده انه كلام مسن سمع ولم يرفهه باعترافه لم يقرأ كتب الغزالي ولكن رأى تلامذته وأصحابه وسمع منهم أنوعا من حاله وطريقته تلوح بها من مذهبه وسيرته ما قام له مقام العيان ، ولهذا كان أمثل ما اشتمل عليه رد التناج السبكي قوله : أن ما ادعاه المازرى من انه عرف مذهب بحيث قام له مقام العيان هو كلام عجيب ، فأننا لا نستجيز أن نحكم على عقيدة أحد بهذا الحكم ، فان ذلك لا يطلع عليه إلا الله ، ولئن انتهت اليه القوانين والأخبار أبدا قلنا : وخاصة اذا كان مصدر ذلك مجرد السماع - قال ابن السبكي : وقد وقفنا نحن على غالب كلام الغزالي وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه وتناقلوا أخباره . وهم أعرف به من المازرى ، ثم لم نكتب الى أكثر من غلبة الظن بأنه رجل أشعرى المعتقد ، خاض فى كلام الصوفية .

وهذا نهج في نقد افكار الرجال لا يرتضيه المنهج ونهج في وزن الرجال لا يرجع في ميزان العلل وما كان ينبغي للامام المازري ان يحكم على مثل الغزالي بهذه الاحكام القاسية بمجرد سماع ما يحكيه عن احواله وتلامذته واصحابه ، ثم نتساءل من هم اولئك التلامذة والاصحاب الذين سمع منهم الامام المازني ما تلوح به من مذهب الغزالي وسيرته ما قام له مقام العيان ؟ اهم من المغاربة أم من المشاركة ومحنة كتب الغزالي بسين اضربة مشهورة واصحابه الذين حكوا للمازري حاله وسيرته ؟ هل كان لهذه المحنة اثر عليهم ؟ أو كان لهذه المحنة اثر على تصور المازري للغزالي وكتبه وافكاره من خلال سجونها ؟

والامام المازري كل من المكانة العلمية والذكاء العبقري والتحصيل العلمي مما جعل ابن السبكي يقول عنه انه كان زكنازكيا اذكي المغاربة قريحة واحدهم ذهنا بحيث اجتروا على شرح البرهان لامام الحرمين وهو لغز الامة الذي لا يحوم نحو حماه ولا يدندن حول مغزاه الا غواص على المعاني ثاقب الذهن مبرز في العلم .

وكانت كتب الغزالي . خصوصا الاحياء منتشرة في العالم الاسلامي متعالة لعامة الناس وخاصتهم لو ارادها الامام المازري لينظر فيها تحقيقا لما سمعه لكانت بين يديه ، ولكن هكذا جرت الاقدار بسين الرجلين والله تعالى يجعلهما ممن قال فيهم في محكم كتابه ونزعنا في صدرهم من عل اخوانا على سرر متقابلين) .

وأما الامام أبو بكر الطرطوشي فقد جرى في نقده للغزالي على نوح الفقهاء والمحدثين الذين ينفرون من طرائق المتكلمين واهل النظر العقلي كما ينفرون من مسلك الصوفية وهذان هما طريقة الغزالي في تفكيره وسلوكه لكن الطرطوشي كان انصف للغزالي من المازري ، وكلامه جدير بالنظر لانه اجتمع به وباحثه وعرف فضله وقدره العلمي ومكانته الفكرية

رد ابن السبكي في الطبقات ان الطرطوشي ذكر في رسالته الى ابن مظفر : (فاما ما ذكرت من امر الغزالي فرأيت الرجل وكلمته ، فرأيت رجلا من اهل العلم قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العقل والفهم ومبارسة العلوم طول زمانه ثم بداله الانصراف عن طريق العلماء ودخل في غمار العمال ، ثم تصوف فهجرت العلوم وأهلها ودخل في علوم الخواطر وارباب القلوب ووساوس الشيطان ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ولقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمديتكلم في علوم الاحوال ورموز الصوفية وكان غير انيس بها ولا خبير بمعرفتها فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات) وقد رد ابن السبكي على الطرطوشي ردا متحاملا لم ينصفه

فيه وهو من اعلام العلماء وصالحى الامة ، وهو قد انصف الغزالي ولم يعيب عليه الا ما عابه عليه كثير من الفقهاء والمحدثين من تركه طريقة الفقه وهو علم الشريعة مع استبحاره فى علومها الى طريقه المتصوفه التى لا تقوم فى نظر المتشرعين الا على المكاشفات التى لا تؤمن عراقيها ولا يمكن التحرز من مزالقتها وهذا ما عناه الطرطوشى بقوله فى الغزالي فهجر العلوم وأهلها ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان .

وبين هؤلاء وهؤلاء من المحبين والشائنين فريق نظر الى أبى حامد رحمه الله نظرة الى امام من قادة الفكر فى الاسلام خاض ببحار العلوم والمعارف بحثا وراء الحقيقة فصورها بقلبه ولسانه كما تصورها بعقله واطهرها للناس فى كتبه ومؤلفاته ومجالس املائه ومدارساته كما رأيها ببصيرته .

ومن هذا الفريق من استشعر فى نفسه اجلال أبى حامد وحمه وانه فاستظم انكار المنكرين ، ونهض مشمر يدفع نقد الناقدين ويرد اعتراض المعارضين فى نوح من الحماسة التى قد تقضى على العثرات وقد تدفع الى التحمل فى تخريج ما عسى ان يكون هناك من زلات .

ويمثل هذا الفريق فيلسوف الصوفية وامام متأخريهم ابن عربى . الحائى والمشيخة عبد الكريم الجبلى ، والشعرانى ، والسمهودى ، والسيوطى وانتاج السبكي .

ومنهم من رأى أن أبى حامد وان كان فى جلاله قدره بالمحل المرموقى جلبت الفكر ومبادئ العلم ، لكنه انسان يجوز عليه ما يجوز على غيره من العلماء والائمة من الخطأ مع اعتقاد حسن النية فى عقيدته وبذلك الجهد مخلصا فى سبيل الوصول الى الحقيقة التى ينشدها عن طريق البحث والحق عندهم اعظم من اقدار الرجال وأبو حامد نفسه ينادى بهذا المبدأ فى التحرر الفكري فهو يقول فى كتاب (معيار العلم) وكتاب (المنقذ من الضلال) و « شفاء العقول يعرفون الحق بالرجال » لا الرجال بالحق والعاقلة يقتدى بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله » .

ويمثل هؤلاء الناقدين لآبى حامد مع الاعتراف بفضلته تلميذه القاضى أبو بكر بن العربى فقد نقد شيخه أبى حامد فى قولته المشهورة « ليس فى الامكان ابداع مما كان » مع تعظيمه له فقال : (قال شيخنا أبو حامد الغزالي قولا عظيما أنتقدته عليه أهل العراق وهو بشهادة الله موضع انتقاد ، قال : ليس فى القدرة ابداع من هذا العالم فى الاتفاق والحكمة ولو كان فى القدرة ابداع منه وادخره لكأن ذلك منافيا للوجود) ثم قاله

ابن العربي : ونحن وإن كنا قطرة في بحر فاما لا نرد عليه الا بقوله ..
فسبحان من اكمل لشيئنا هذا فواصل الخلاق ثم صرف به عن هذه
الواضحة في الطرائق .

والامام ابن العربي كان شديد التعظيم لشيخه ابي حامد عارفا
لقدره بصيرا برسوخ قدمه في العلوم والمعارف ، يقول في كتابه « قانون
التأويل » ورد علينا (أى في بغداد) ذا شمسند (يعنى الغزالي) فنزل في
رباط ابي سمعة بازاء المدرسة النظامية . معرضا عن اندسيا ، مقبلا على
الله تعالى ! فمشينا اليه وعرضنا امنيتنا عليه وقلت له : انت ضالتنا
التي كنا ننشد ! وامامنا الذي به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا
منه ما كان فوق الصفة (١) .

وقد في كتاب (العواصم) عند تعرضه للحديث عن الفلاسفة ورد
مذاهبهم الفلسفية فانتدب للرد عليهم بلفتهم ومكافحتهم بأسلحتهم والنقض
عليهم بأدلتهم ابي حامد الغزالي رحمه الله ، فاجاد فيما افاد ؛ وايدع في ذلك
كما اراه الله واراد وبلغ من فضيحتهم المراد فافسد قولهم وذبحهم بمداهم
فكان من جيد ما اتاه ومن احسن ما رواه وراه وافرد عليهم فيما يختصون
به دون مشاركة أهل البدع كتابا سماه (تهاوت الفلاسفة . ظهرت فيه
منته ؛ ووضحت في درج المعارف مرتبته .

وقد تكررت هذه الكلمة التي اخذت على الغزالي في عديد من مؤلفاته
بعبارات متقاربة الانفاظ موحدة المعنى فقد جاءت في كتاب « التوكل »
عند الحديث عما يشر « التوكل » فانه قال : (كل ما خلقه الله من السموات
والارض أن اعنوا فيه البصر وطولوا فيه النظر لما راوا فيه من تفاوت
ولا فطور ، وكل ما قسمه الله بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وفرح ،
وحزن وعجز ، وقدرة وإيمان ، وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل لا جور
فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، وليس في الامكان اصلا اثم منه ولا احسن
ولا اكمل ولو كان . وادخره مع القدرة ولم يفعله لكان بخلا يناقض
الجلود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عاجزا والعجز ينافي
الالهية .

وقال ايضا في الاجوبة المسكنة مصورا لاعتراض المعارض عليه في
هذه الكلمة « وما معنى بأن ليس في الامكان ابدع من صورة هذا العالم
ولا احسن ترتيبا ولا اكمل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليه .
كان ذلك بخلا يناقض الجود وعجزا يناقض القدرة الالهية » .

وتكرر هذه العبارة في اكثر من كتاب من مؤلفات الغزالي ، ونقد

(١) الاستاذ الامام محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر في مقدمة إحدى طبعات الأحياء.

تلميذه ابن العربي لها ، وادخال انغزالي نفسه لها فى اشكالات «الاحياء» وتكلفه الاجابة عنها يرد على من زعموا - دفاعاً عن ابي حامد - انكار صدور مثل هذا القول منه وانه مفسوس عليه محتجين بأن مؤدى هذه العبارة لا يتماشى الا على اصول الفلاسفة والمتزلة وأبو حامد رحمه الله قد رد على هؤلاء وهؤلاء اصولهم فى الجود والفيض والصلاح والاصلاح ومؤلفاته طافحة بهذه الردود ، ففى كتابى «تهافت الفلاسفة» و«مقاصد الفلاسفة» رد على مذاهب الفلاسفة ، وفى كتب «الاحياء» و«الاقتصاد فى الاعتقاد» و«القسطنطين المستقيم» و«المستطفي» رد على المعتزلة ونقص اصولهم فى الحسن والقبح والصلاح والاصلاح ، فلا يعقل أن يتناقض مع نفسه ويقول هذه العبارة التى لا تتفق مع رده على الطائفتين.

الغزالي بين السياسة والمنافسة

وقد كان علماء المغرب من الاندلسيين والافريقيين من أشد ناقدى الغزالي والمتكرين عليه فقد حرقوا كتبه ، وأغروا بها العامة وأفتوا الملوك والامراء وذوى السلطان فى اقطارهم وأغروهم بوجوب حرقها واعدائها ، وتولى كبر ذلك القاضي أبو القاسم بن محمد بن قاضى الدولة التاشفينية فى عهد أميرها «على بن يوسف بن تاشفين» وكان هذا الأمير كافيها من قبله لا يخرج فى سياسته وأحكامه عن رأى الفقهاء الذين كانوا أهل الشورى. فى الدولة فاللوبة لا تقطع أمراً دون رأيهم وفتاواهم ، وكان هؤلاء الفقهاء على مذهب السلف فى الاصول والعقائد وعلى مذهب مالك بن أنس فى الفروع وأحكام الحوادث فلما صلت الى أيديهم كتب ابي حامد وخاصة كتاب الإحياء رأوا فيها مخالفة لما ألفوه وجروا عليه فأقاموا النكير عليها وعلى مؤلفها وعدوه مبتدعاً وعدوا كتبه «بدعة فى الاسلام» وكتبوا بذلك خطوطهم ورفعوها الى أمير المسلمين ، يطلبون اليه اعلان تحريم قراءة هذه الكتب وجوب اعدامها ، ومعاينة من يحتفظ بها لما فيها من بدع المتكلمين وضلالات الفلاسفة ولما تحويه من تنقيص العلماء والفقهاء وشتيمهم وتنفير العامة من متابعتهم والخط من شأنهم وشأن علومهم ، وهذا - فى واقع الحقيقة هو السبب الأهم فى تحريك هذه الفتنة فقد كان أبو حامد شديد النكير على الفقهاء والنقضاة .

وعارض هذا الإجماع فقيه فامر أبو الفضل بن محمد الحاموي المشهور بابن النحوى فى جمع قليل من تلاميذه ومحبيه الذين أبوا ان يشاركوا أولئك الفقهاء فى هذه الثورة على الغزالي ومؤلفاته ، وكان ابن النحوى محبا للغزالي وكتبه كثير النظر فيها اتيسا بها وجعل من كتاب الإحياء

كتابته المفضل في القراءة والاقراء . يقول أبو الحسن علي بن حزم لما وصل الى فاس كتاب أمير المؤمنين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء وان يحلف الناس بالايصال المغنطة ان كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت الى أبي الفضل استفتيته في تلك الايمان فافتانني بأنها لنزوم وكانت الى جنبه فقال لي : هذه الاسفار من كتاب الاحياء ووددت اني لم أنظر في عمري سواها (١) .

وتروى حكاية عن أبي الحسن بن حزم هذا يرويها ابن السبكي في الطبقات وغيره وتتضمن ان ابن حزم كان من أشد المنكرين على كتاب الاحياء وكان يقول انه بدعة مخالف للسنة وأنه هو الذي طلب الى السلطان جمع نسخ الاحياء واجتمع الفقهاء ونظروا فيه ثم اجمعوا على احراقه وكان ذلك يوم الخميس ، فلما امسى ابن حزم من ليلة الجمعة في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهم جلوسا والامام ابو حامد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم وكتاب الاحياء بيده فقال يا رسول الله هذا خصمي مشيرا الى ابن حزم ثم ناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الاحياء وقال : يا رسول الله انظر فيه فان كان بدعة مخالفا لسننتك كما زعم تبث الى الله تعالى وان كان شيئا تستحسنه حصل لي من بركتك فانصفني من خصمي .

وتقول الرواية في تكميل هذه القصة ان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه استحسنوه وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد ابن حزم وضربه حد المفتري فضرب خمسة أسواط ثم شفع فيه أبو بكر رضى الله عنه وقال : يا رسول الله انما حصل ذلك منه اجتهدا في سننتك وتعظيما فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما أصبح ابن حزم وجد أثر السياط على ظهره وهو يتالم يقول ابن السبكي : وصار ينظر في كتاب الاحياء ويعظمه ويبجله وهذه حكاية صحيحة حكاه شيخنا الكبير ولي الله تعالى أبو العباس المرسي عن شيخه الشيخ الكبير ولي الله أبي الحسن الشاذلي .

هذه قصة قد يكون الخيال لعب دورا في نسجها من زيود الحب لهذا الامام نذكرها من قبيل سابقتها في الدلالة على تعظيم الغزالي ومكانته في نظر محبيه ، فهل كان ابن حزم منكرا على الغزالي في أول أمره تائرا بمالوف فقهاء بلاده من التمسك بمذهب السلف من عدم تأويل النصوص والوقوف عند طواهرها في العقائد ثم عاد اليه بالتعظيم والقبول لمذهبه وآرائه بعد هذه الرؤيا اذا صحت انرواية بها ؟! وان الشيخ ابن حزم كان على منوال ابن النحوي في معارضة القائلين ضد الغزالي وكان له فضل وفضل مذهبه وآرائه ، فاستأنس بابن النحوي ينفوي به في -

(١) مقال الغزالي وللغريب للاستاذ محمد المتصر الكائن بمجلة منبر الاسلام

المعارضة كما تقول الرواية التاريخية السابقة ؟ ترجع هذا على رغم تصحيح ابن السبكي الرؤيا بالحكاية .

بيد أن معارضة ابن النحري في شجاعته لم تكن لتقوى على الوقوف في وجه ثورة الفقهاء الذين استطاعوا أن يضموا عامة الناس واغمار طلبة العلم من تلاميذهم - الى جانب ما كان للفقهاء من مكانة في دولة المرابطين باعتبارهم أهل شوارها مما يشكل خطرا ثوريا على الدولة باسم الدين وهو أمر مرعب ، تخافه الدولة ولا تستطيع مقاومته ، لان الدين كان اذ ذاك هو الاساس الدستوري في قيام الدولة ، ولمايته من الالحاد والبدع والنزعات المنحرفة تحيا وتنهض وعلى قواعد يقوم بنيانها وتستقر دعائمها .

فلم يكن بد من أن يستجيب أمير المسلمين (علي بن يوسف بن تاشفين) لصيحة الفقهاء فأمر بالبحث عن كتاب الاحياء وغيره من مؤلفات الغزالي وشهد على الناس في التفتيش والتنقيب وكتب الى سائر البلدان في مملكته وأغلظ على العامة والخاصة بالايان المغلفة حتى جمع من نسخ الاحياء الشيء الكثير من بلاد الاندلس والمغرب الاقصى ووضع ما جمع من الاندلسيين في صحن جامع قرطبة وما جمع من بلاد مراكش في صحن مسجدها الجامع وهكذا في سائر الاقطار المغربية واشعلت فيها النيران هنا وهناك .

اتر ذلك اترا عظيما في نفس ابي حامد الغزالي ، بلغه وهو في بغداد ، فتأسف وحزن - حزنا ادمى قلبه ، فكان ، يدعو على دولة التاشفين بأن يمزق الله ملكهم كما مزقوا كتابه الذي يعتز به اعتزازا لم يمتزه بكتاب مثله في كثرة مؤلفاته وغزاتها وجلالة قدرها لانه الاحياء كانه يحتري على عناصر الثورة الكامنة في نفس الغزالي على عصره الذي قاسى فيه من المتاعب على ايدي زعماء الفرق وارباب النحل وتقلبات السياسة في دول الاسلام مع قعود الفقهاء وائمة الدين عن الدفوع واطهار الحق والرد على الملاحدة والمبتذعة وجريهم وراء المناصب التي تفريهم من أهل الدنيا .

روي ابن القطان في كتابه (نظام الجمان فيما سلف من اخبار الزمان) عن عبد الله بن عبد الرحمن شيخ مسم من سكان فاس ، قال كنت ببغداد بمدرسة ابي حامد الغزالي ، فجاء رجل كثر اللحية على رأسه كرزى ، صوف فدخل المدرسة وحياها بركتين ثم أقبل على الشيخ ابي حامد فسلم عليه فقال الغزالي ممن الرجل ؟

قال الرجل : من أهل المغرب الاقصى .

قال الغزالي : دخلت قرطبة ؟

قال الرجل : نعم .

قال الغزالي : ما فعل فقهاؤها

قال الرجل : بخير .

قال الغزالي : هل بلغهم الاحياء .

قال الرجل : نعم .

قال الغزالي : فما فعلوا فيه ؟

فصمت الرجل ولم يجب فعزم عليه الغزالي ليقولن ما دلوا ، فأخبره
بأخراجه وقص عليه ما جرى في شأنه ، فتغير وجه الغزالي ، ومد يده بالدعاء
والطلبة يؤمنون فقال اللهم مرق منكم كما مرقوه واذهب دولهم كما حرقوه

قال راوى هذا الحديث : فقام محمد بن تومرت السوسى المصودى
وكن من أخصاء تلاميذ الغزالي ومريديه ، لازمه ثلاث سنين وأخذ عنه الاصول
والعقائد ، وطريقته فى التربية والسلوك ، وقال : ايها الامام ادع الله ان
يجعل ذلك على يدى فقال الغزالي : اخرج سيجعل الله ذلك على يدك .

وتقول الرواية متوافقة مع واقع التاريخ فى الاحداث التى جرت بعد
ذلك على دولة المرابطين ، ان الله تعالى قبل دعاء الغزالي رضى الله عنه وخرج
محمد بن تومرت الذى لقب فيما بعد بالمهدي متوجها الى بلاده المغرب آمرا
بالمعروف ناهيا عن المنكر ، متحملا فى سبيل دعوته أشد الايذا ، ساءلا
محتسبا على قدر الزهد والورع ، لايبالى الدنيا أوقعت فى يده ام تجم
قذمه ، قولا بالحق غير هيباب ؛ وكان قد طوف فى بلاد الاسلام طالبا العلم
داعيا الى الله ، وحج واشتد نكيره على الناس فى مكة ، فأخرجوه منها وذهب
الى مصر ثم الى الاسكندرية فلم يطب له مقام فيهما ، فركب البحر الى المغرب
ونزل بالمهدية فلم يقر له فيها قرار ورحل الى (بجاية) وهناك فى مجالس
الوعظ والتدريس تعرف على صاحبه وشريكه فى تأسيس دولة الموحدين
(عبد المؤمن بن علي) الذى كان أول ملوكها فأعجب كل منهما بصاحبه
وكشف له عن خبيثته ذاته فتوافقا على العمل والتدبير فى إزالة دولة
المرابطين « التاشفينية » ، وأظهر ابن تومرت مذهب الاشاعرة فى العقائد
والرد على المبتدعة بجنس حججهم وعلى طريقتهم وأسلوبهم وتأويل نصوص
التمشابه وآيات الصفات كما صنع شيخه واستأذنه أبو حامد الغزالي فى
مؤلفاته ومجانس مناظراته ومحافل دروسه قال ابن ابي زرع (ان المهدي
رحل الى الشرق فى طلب العلم ونبح فى علم الاصول والاعتقادات وكان من
جملة من لقي من العلماء الشيخ أبو حامد الغزالي .

وقد كان أبو حامد رحمه الله فى طبيعة علماء المشاركة الذين انتوا
(يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين ووالد (علي بن يوسف) الذى حرق

الاحياء فى عهدہ بموجب خلع ملوك الطوائف الاندلسيين انذين استشرى الفساد على ايديهم وتخاذلوا أمام أعداء الاسلام واتسعت الخلافات بينهم واذلوا المسلمين وظلموا الخاصة والعامة وبغوا فى الارض بغير الحق ، ومن قوا دولة الاسلام العظمى فى هذا الجانب من ارض الله وتقاسموها دويلات هزيلة يحارب بعضهم بعضا والمدو متربص بهم ، يفرى فى صدورهم الاحقاد ويوقد نيران التحامد والبغضاء بينهم ، حتى كان أحدهم لا يبالى أن يستعين بأعداء الاسلام من طغاة الصليبيين على منافسيه من ضعفاء الملوك والامراء ، يقول العلامة ابن خلدون ، « وأفتى يوسف بن تاشفين الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم وسأرت بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالي والطرطوشى وغيرهما » .

فاستجاب (ابن تاشفين) للغزالي ومن وافقه من الاعلام ودخل الاندلس بجحافلہ وتجمع لحربه ومقاومته أولئك الملوك الضعاف واستنجدوا على قتاله بالصليبيين واليهود من أعداء الاسلام فهزمهم الله أمامه شر هزيمة واستعاد (ابن تاشفين) وحدة الدولة الاسلامية فى الاندلس والمغرب تحت لوائه : وقد تجاوزت أفاق الاسلام بهذه الانتصارات الباهرة وذاعت انبأها فى المشرق فاعتز لها العلماء والأئمة وكان أشدهم فرحاً بها وأعجاباً بأبطالها الامام أبو حامد الغزالي فألهمه الله أن يتخذ من هذه الانتصارات وسيلة لوحدة الامة الاسلامية فى المشرق والمغرب تحت راية الخلافة فى بفسداد بعد أن مزقتها الأهواء إلى مجموعة من الدويلات مشتتة هنا وهناك مما أطبع فيها أعداء الاسلام الواقفين له بالمرصاد ، يبتغونه الفوائى ويقتصرون من أطراف دوله وممالكه قطعة وراء قطعة حتى انحصر ملك الاسلام فى رقعة من الارض يحوطها الخطر من كل جانب .

فكر الغزالي - وقد بلغ فى دولة الخلافة الذروة بأمامته الفكرية وزعامته الروحية فى اتخاذ خطوة سياسية بارعة معتمدا على مكانته وعلى ما بلغه من الفئات من عدالة ، « يوسف بن تاشفين » وأصاله رأيه ، واستقامة دينه وحبه للخير وشففه بالجهد فى سبيل الله ووفرة قوة جيوشه ونظامها وتشبها بروح الفداء وبعدها عن تبيع الحضارة فى دولته الناشئة ، وعلى ما اسنده الى (ابن تاشفين) من منه كبرى بتجميع القلوب حوله وتأيينه بفتره وفتوى العلماء فى ضم بلاد الاندلس الى مملكته التى رأى فيها (ابن تاشفين) وجنوده قوة حربية ساعدته على تحقيق انتصاراته العظيمة بما قلنفته فى قلوب أعدائه من الخزلان والاضطراب وبما بعثته فى قلوب جنده من الاستبسال والبطولة .

لم يترك الغزالي الزمن يمر على الاحداث فيقلل من روعتها ويفل من حدتها ولكنه سابها واخذ يعمل بسرعة فى السعى لى دار الخلافة العباسية

في عاصمة الدولة لتعترف بشرعية حكم « يوسف بن تاشفين » مؤسس « دولة المرابطين في المغرب وكتب الى (ابن تاشفين) يبيّنه ويحضه على تسير العدل بين الرعية ويرغبه في التمسك بفعل الخير ويخبره « ساعية الحميدة ويوحى اليه ليستكمل بحسن رأيه وحكيم سياسته ما بدأه لاجله وأجل دوله التي تعمل على رفعة الاسلام ونصر المسلمين وطلب اليه ان يخطر الحيلولة العملية اسريعة التي تحقق الغاية النبيلة .

وكان (ابن تاشفين) ثديانته واخلاصه وطموحه يتعطلن الى انه تبارك الخلافة حكمه وتقر امارته وتؤيده في فتوحاته وضم شمل المسلمين وجمع كلمتهم .

فلما بلغته كتب الغزالي وفهم مقاصده الشريفة اسرع الى تنفيذ ما اشار به عليه الامام وارسل الى بغداد بعثة للمنول بين يدي الخليفة وتقديم الشكر وشرح الحال في بلاد الاندلس وبين مقاصده (ابن تاشفين) التي ترمي الى توحيد كلمة المسلمين وانقاذ مسلمي الاندلس من ظلم حاكميهم وعن تعرضهم لغارات الفرنجية وهتك حرماهم وسلب اموالهم وسفك دماهم دون ان يجدوا في ملوكهم وامرائهم المستضعفين من يرد عنهم غائلتهم ويحمي حوزتهم

ورأى (ابن تاشفين) بشاغب نظره وناقد بصيرته ان تكون بعثته الى الحضرة الخليفة من علماء الدين ذوي الآراء الناضجة في سياسة الاسلام وان يكون منهم من يمت بصلات انقرب الروحي والورد العلمي والنسب الفكري الى الامام أبي حامد الغزالي صاحب الفكرة الذي اوحى بها اليه ، وان يكون في رجالها من أبناء الاندلس من يعرف حالها حق المعرفة .

اختار ابن تاشفين في بعثته الفقيه أبا محمد، عبد الله المعافري وابنه الامام الحافظ أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، أحد الافذاذ من أحرار الفكر في تاريخ الاسلام ، وكان أبو بكر هذا قد اجتمع بالغزالي وتعلمه عليه وأخذ منه علما غريرا في رحلته الى الشام والى بغداد حيث اقامه فيهما ، حتى أصبح من خواص تلاميذه أثرا عنده حظيا بعنايته وكان يجلس شيخه اجلالا عظيما ويقول له : (انت ضالتنا التي كنا ننشد لأماننا الذي به نسترشد) .

وقد اادت هذه البعثة ما حملت من أمانة في رسالتها أكمل اداء بفضل تمهيدات الامام الغزالي وامداده بجاهه ومشورته ، وعادت الى (ابن تاشفين) تحمل اليه الرضا الخلفي واقرار امارته وتبارك فتوحاته .

وبهذه القوة المعنوية وثبت جفافله الى عدوة الاندلس ، فربه ملوكها وامرائها فبايعوه على المناصرة ، وضم شملهم اليه ؛ وجمع كلمتهم عليه ووجههم قوة مهيمنة مع قوة جيوشه الى جهاد اعناد الاسلام ورد غاراتهم

فرعهم وقذف الله في قلوبهم الوهن والرعيب فانتهجوا منهزمين هزيمة منكرة . ما كانت تقوّم لهم بهذه قائمة لو ظلت قوة الاسلام مجتمعة . متضامة على عهد خلفاء (ابن تاشفين) كما كانت على عهد ، وفي ظل امامته وسياسته ولكن تغير الحال في دولة المرابطين بعد وفاة عميدها ومؤسسها (يوسف بن تاشفين) أوقف اندفاع هذه الانتصارات البهرة بل قلبها الى هزائم أطمعت أعداء الاسلام في بقايا تخلفات الدويلات الاسلامية الاسلامية هناك .

ذلك أن خضوع ابنه وخليفته من بعده (علي بن يوسف بن تاشفين) الى اغمار الفقهاء من أهل شواره وأصفائه لأرائهم في كتب الغزالي وتأثر الامام لذلك أشد التأثير ودعاؤه على دولته وتحريضه تلميذه العياشي الطموح (محمد بن تومرت) الملقب فيما بعد بالمهدي على القيام بتقويض دعائم دولة المرابطين ، كل ذلك قلب الاوضاع وغير وجه الاحداث .

وقد نجح (ابن تومرت) نجاحاً مدهشاً في القضاء على دولة (المرابطين وإقامة دولة (الموحدين) على انقاضها بمعاونة صديقه وصفييه (ابن عبد المؤمن أول أمراء (الموحدين) التي قامت على مبادئ الغزالي وأفكاره .

هكذا لعب الامم الغزالي في السياسة دوراً من أخطر ما عرف في تاريخ الانقلابات السياسية . فهو قد أمد بنفوذه دولة ناشئة هي دولة المرابطين حتى أصبحت لها الكلمة النافذة في سائر الجانِب الغربي من الوطن الاسلامي وهو قد قوض بنيان هذه الدولة بنفوذه وتديبره وتحريضه ، وأقام على انقاضها دولة جديدة هي دولة الموحدين التي أسسها وقام بدعوتها تلميذه الدائر الطموح (محمد بن تومرت) الملقب بالمهدي .

وكذلك العبقریات دائماً هي التي تصنع التاريخ ، وتوجه الاحداث ، وقد كان الغزالي أحد هذه العبقریات الضخمة في تاريخ الفكر الانساني في ظل الاسلام .

الغزالي بين تيارات النضال

كان عصر أبي حامد الغزالي - كما وصفناه - عصرًا يموج بتيارات الفكر البشري ويقبض بمناجيع العلوم والمعارف الانسانية من ثمرات العقل وتجارب الحس لجميع أرباب الملل والنحل وسائر المذاهب والفرق والطوائف ، وكانت عواصم الخلافه الاسلاميه في الشرق والغرب ميدانًا تصول فيه فحول العلماء وزعماء الافكار ودعاة الفرق المختلفه في محافل المناظرات والجدل ، وحلقات التدريس في دور العلم ومعاهده ، وفي المساجد ومجامع ذوى السلطان من الخلفاء والوزراء والولاة ممن يحبون مدارس العلم تمدحها به ومباهاة لمنافسة المتنافسين .

بيد أن هذا العصر الذي سمت فيه كلمة العلم كان عصرًا منحل العرى السياسية ، مضطربًا في نظمه الحكومية ، متميعًا غير متماسك ؛ تشعبت فيه الدوله الاسلاميه العظمى الموحدة الى دويلات هنا وهناك ، اختلفت على نفسها ، وجعل الله بأسهم بينهم ، يحارب بعضهم بعضًا ؛ لا تقوى احداها الا على حساب ضعف أختها ، ولا تنهض منها دولة الى الاخذ بأسباب الفسوة والعزوة الا لتذل جارة لها تواخيها في ظلال الاسلام .

وكان أبو حامد رحمه الله قد بلغ في عصره مكانة من عريض الجاه وبعم الصيت وواسع الشهرة مما جعله مصب حسد الحاسدين ، ونال من الحظ الارتفاع ما فاق به أقرانه ، وخلفهم وراءه مشدوهين ، بل سما بمقامه على أستاذته وشيوخه ، حتى قيل أنه استأذنه ومؤسس شخصيته الامام الاجل أبا المعالي عبد الملك الجويني أمام الحرمين - وهو من هو كان - كما يقولون في الغزالي في التلمذة عليه عبيد الغافر بن اسماعيل الفارسي - (لا يصغي اليه سرا ، لإبائه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تقديمه للتصانيف وإن كان متخرجًا به منتسبًا اليه كما لا يخفى من طباع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمرة) وكما يقول ابن السبكي في الطبقات :

(إن الامام كان بالآخره يمتعض منه في الباطن وإن كان يظهر التعجب به في الظاهر)

وصل الغزالي في امامة الفكر وكفاح المعاصرين من جميع الفرق والطوائف الى مرتبه لم تطمح اليها نفس تعاصره ، ولا طمحت شخصيته

في عصره أن تطاوله ، واقتعد من الفضل ذروة حسده عليها أهل الاماني والاحلام من الطامعين ، وحرد عليه لاجلها وزراء عصره وأمرأه دهره .
وفي ذلك يقول عصريه وقرينه عبد الغافر الفارسي ، وهو شاهد عيان ومشافة بيان (فخرج من نيسابور - أي بعد موت أساتذته امام الحرمين - وصار الى المعسكر واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول : واقبل عليه الصاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته وجرى عبارته ، وكانت تلك الحضرة محط رجال العلماء ، ومقصد الائمة والفصحاء فروقت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالائمة وملاقاته الخصوم الذاء ومناظرة الفحول ، ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في الافاق ، وارتفق بذلك كل الارتفاق حتى أدت الحال به الى أن رسم لضمير الى بغداد للقيام بتدريس المدرسة الميمنية النظامية بها ، فصار اليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد امامة خراسان امام العراق . وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الاكابر والامراء ودار الخلافة ، فانقلب الامر من وجه آخر . وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والمثالة ؛ وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة الاستغفال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه ، وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام وأقام في تلك اديار قريبا من عشر سنين) .

ويقول عبد الغافر أيضا : (وظهرت التصانيف وفشت الكتب ولم تبدو في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لاحد على أمره حتى انتهت نوبة الوزارة الى الاجل فخر الملك جمال الشهداء . . . وقصد سمح وتحقق بمكان الغزالي ودرجته وكمال فضله وحالته ووصف العقيدة ومعاشرته ، فترك به وحضره وسمع كلامه فاستدعى منه ألا يبقى انفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح وشدد في الاقتراح . . . وأشير عليه بالتدريس في المدرسة الميمنية النظامية فلم يجد بدا من الإذعان للولاة ، ونوى باظهار ما اشتغل به هنيأة السراة وإفادة للقاصدين دون الرجوع الى ما تخل عنه من طلب الجاه وممارسة الاقران ومكاثرة المعاندين ، وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوف فيه والطنن فيما يذره ويأتيه ، والسعاية به والتشجيع عليه ، فما تأثر به ولا اشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيجاحشا بغميزة المخطئين) .

ثم قال عبد الغافر : (ثم سألناه عن كيفية رغبته في الخروج من بيته والرجوع الى ما دعى اليه من أمر نيسابور ؟ فقال معتبرا عنه :

ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة ،
وقد حق على أن أبوح بالحق وأنطق به وادعو إليه . وكان صادق في
ذلك ، ثم ترك ذلك قبل أن يترك ، وعاد إلى بيته واتخذ من جواره
مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية . . . إلى أن أصابه عين الزمان ،
وضنت به الأيام على أهل عصره . فنقله إلى كريم جواره بعد مفاسسة
أنواع من انتقصد والمناوة من الخصوم والسسعي به إلى الملوك ، وكفاه
الله وحفظه وصانه عن أن تنوشه أيدي المنسكيات أو يهتك من دينه
بشيء من الزلات .

هذا كلام صريح واضح يتحدث به إلى التاريخ رجل عناصر الغزالي ،
بل شاركة الدراسة على أستاذ عصره . وأمام دهره أبي المعالي عبد الملك
الجويني أمام الحرمين بل أن عبد الغافر يصرح بأنه كان يشك في سدى
اتجاه الغزالي إلى الزهد والتجرد ، فيقول : (ولقد زرت مرارا وما كنت
أحدث في نفسي ما عهدته في سالف الزمان عليهم الذعارة والنظر إليه
بعين الازدراء والاستخفاف به كبرا وخيلا ، واغترارا بما زفه الله من
البسطة في النطق والخطار والعبادة وطلب الجاه والعلو في المنزلة أنه
صار على الضد ، وتصفى من تلك الكدورات ، وكنت أظن أنه متفلسح
بجلبات التكلف بما صار إليه ، فتحققت بعد التروى والتنقير أن الأمر
على خلاف المظنون ، وإن الرجل أفاق بعد الجنون .

وحكى لنا في ليال كريمة أحواله من ابتداء ما ظهر له من سلوك
طريق التآله وغلبت الحال عليه بعد تبخره في العلوم واستنطالته على
لكل بكلامه والاستعداد الذي خصه الله به في تحصييل أنواع العلوم
وتمكنه من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العربية عن
المعاملة وتفكر في العاقبة وما يجدى وما ينفع في الآخرة ، فابتدأ بصحبه
الفارمدى وأخذ عنه استفتاح الطريقة وامثل ما كان يشير به عليه من
القيام بوظائف العبادات والامعان في النوافل واستدامة الأذكار ولله
والاجتهاد طلبا للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشقة
وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى لنا أنه راجع العلوم وخاصة في الفنون ، وعاد الجهد
والاجتهاد في كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها
وبقى مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل .

ثم انه حكى انه فتح عليه باب من الخوف بعديث شغلته عن كل شيء
وحمله على الاعراض عما سواه حتى سهل ذلك ، وهكذا . وهكذا إلى أن
ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق وصار ما كنا نظن به تهرسا
ونخلقا طبعيا وتحققا ، وإن ذلك أثر السعادة المقدره له من الله .

فعبء الغافر المتحلىث عن الغزالي ثقة صدوق ، يتحدث عن مشاهدته
لانه زميل معاصر لمشارك للغزالي في طلب العلم والتلمذة على أستاذهما
أمام الحرمين ، فهو قرين عارف خبير بأحوال مجتمعه ، وقد شاهد الأحداث
تجرى من حوله ، والوقائع تمر بين يديه ، هنا وهناك ؛ والغزالي يخوض
ليجها شجاعا جريئا ، مكافحا ؛ يفتح عليها مخاطرها ؛ ويهجم عليها
في غمراتها ، مقدما ؛ وثوقا بنفسه معجبا بقوة ذكائه ؛ وزجاجة عقله ؛
وسعة علمه ، وقوته على أقرانه وفحول أشياخه .

وقد شافهه عبد الغافر ليسمع منه سماع الناقد الحاذق المستبصر
حكاية حاله ، ليستشف من خبيثات نفسه ما عسى أن يكون كامنا
وراء منطق الأحداث من حقائق في حياة هذا الزميل الذي تقلبت به
الاحوال من طرف الى طرف ، قد تكون خافية عنه ، فشهادة عبد الغافر
شهادة زميل لا يغلبه حسن الظن في صاحبه والاعجاب به ، فهي شهادة
صدق لا يأتيها الريب من بين يديها ولا من خلفها .

فالغزالي كان عبقريا مكافحا ، يخوض غمرات الحياة جسورا غير
هاب ولا حذر ، وهذا الكفاح هو الظاهرة القوية الغالبة على عترة
حياته ، فهو منذ رحل من بلده « طوس » الى مجلس استاذة امام الحرمين
في ريعان الصبا وغضارة الشباب أخذ يلتهم بعقله العبقري فاعتد هذا
الامام الذي تفرد بإمامة عصره من العلوم والمعارف التي قضى في تحصيلها
ودرسها دهره حتى استقامت له قناتها وصار فيها المشار اليه .

فلما تضلع منها الغزالي وارتوى ، وامتلاء عقله الواعي بما حصل
وجمع ، أخذ وهو - بعد - لم يستدر عذاره ، ولم يطر شساربه يقيد
ويؤنس ، ويكتب ويصنف ، وينقد ويبحث ويجادل ويناصر ؛ وعقد
لنفسه حلقة درس يحضرها للفادة منه أقرانه الذين رغبوا اليه اذ أنسوا
منه قوة الفهم وسعة التحصيل أن يستعيدوا عليه بعض ما قرأوا على
استاذهم واستاذهم ليتنبهوا ويحققوا ويزدادوا علما ومعرفة .

وكان هذا التقدم من الغزالي بين يدي أستاذه لا يعجب امام الحرمين ،
وكان يزور عليه منه ، ولم يثنه ذلك عن التطلع الى الاستقلال في الجدل
والبحث ، فانتفض لمناظرة خصوم الاسلام من المتفلسفة والرافضة
والتعليمية القائلين بالامام المصوم ، كما ناظر الخارجين على النصوص
الدينية بالتأويل المتعسف من المعتزلة والخواارج ، وناهض الحرفيين
الجامدين الواقفين مع ظواهر النصوص من الجسمة والمشبهة فقهرهم
جميعا ، وعلا صوته على أصواتهم وأكر على غلاة المتصوفة الجامحين
مع الحبال من المعطلة القائلين بالوحدة بين الخالق والمخلوق ، ونقد الفقهاء

والمحدثين ، وعاب عليهم كثرة تفرعاتهم فى جزئيات يتكثرون بها ولما تقع فى الحياة ، نعى عليهم التعصب المذهبى ، وأخذ عليهم ركونهم الى ذوى السلطان من أهل الدنيا تطلعا لما فى أيديهم من خطاياهم ، وشنع عليهم فى سكوتهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية اغضاب أولئك الظلمة ، والدخول معهم فى مظالم سسلطانهم من التنظر على الاحباس وجباية الاوقاف ؛ والتطلع الى مناسيب القضاء والولايات ، والوصول اليها بالرشا والهبات ؛ وقد كان السلف الصالح يفر منها فراره من الاوبئة الفتاكة ؛ وحمل على جميع هؤلاء بقله ولسانه حتى نفر العامة منهم ، وشكك الخاصة فى اخلاقهم وعلومهم بل فى دينهم .

وكن الى جانب ذلك يرى امام عينييه دار الخلافة وعواضم الاسلام تموج بالمتكرات والمظالم ويرى مرى الدين تنحل فيها عروة امر عروة على مرأى مسمع من الخلفاء والملوك والامراء والحاكمين باسم الاسلام ، ويرى العلماء على كثرتهم ، خاصتهم مشغولون بانفسهم ؛ متطوون فى المساجد والزوايا والمدارس ؛ لا ينفرون منكرا ؛ ولا يرفعون عن مظلوم ظلميلا ؛ ولا يدفعون باطلا ، ولا ينتصرون حقا ، وعامتهم منهمكون مع اهل الدنيا من الحاكمين والحكومين ، يلهثون وراء دنياهم ، ولا يتنبهون منها الا فضلات فتاتهم بعد ان يسلبوهم دينهم ؛ مما ارضى نفسه ؛ ودفعه الى أن يجهر بالحق فى وجه الولاة والحاكمين وينعى على الفقهاء والمتكلمين والمحدثين موقفهم ، وذلك كله مع استيفاء واجبه العلمى مع العلماء والمفكرين فى حلقات البحث والمناظرة .

كل ذلك أغرى به حاسديه من جميع الطوائف للوقوع فيه ، والتشنيع عليه ، والسعاية به الى ذوى السلطان فى الدولة من الخلفاء والملوك والامراء والولاة ويطانان دار الخلافة الذين كانوا يرون حشمتهم تعلو فوق سلطانهم ، وسمو مكانته تسمو على مراتبهم ودرجاتهم بما منحه الله له فى قلوب العامة وطلاب العلم من محبة وتعظيم .

وكان لهذا الاغراء أثره فى أنفس ذوى السلطان خوفا على سلطانهم أن تطيح به صولة هذا الامام الذى ملك القلوب بعلمه وفضله وديانته واخلاصه ودفاعه عن حوزة الاسلام بلسانه وقلبه ، والذى غالب خصومه - وما كان أكثرهم - فقهرهم بحجته ، وذاع صيته فى أفاق الاسلام شرقا وغربا ، وشهرت شخصيته فى محافل السلم وميادين المعرفة ، الى جانب ما صادفه هذا الاغراء فى صدر أولئك الحكوم ويطانانهم من هوى مكتوم فى الميل الى الايقاع بهذا الامام أو زحزحته عن مكانه من الحياة ، أو اقتصائه عن مواطن سلطانهم بقسره على العزلة عن حياة الناس .

وأبو حامد الغزالي رحمه الله رجل دراك ، صنيف الفهن ، المقي
الغراسه ، صادق الحسب ، لا يخذع عن عقله ، نال ما نال من المكانة ، وهو
في فتوة الشباب ؛ وريعا في الفتوة ؛ ومن حوله أقرانه الذين لم يلحقوا
بغبار ، وأمامه أشياخه الذين خلفهم وراءه ، ولم يدركوا شأوه ، وهو
يعلم ان الحسد داء البشرية القديم ، ومرض المعاصرة المقيم ، وفي ذلك
يقول أبو حامد في مقدمة كتابه (في فصل التفرقة بين الاسلام
والزندقة) .

أما بعد فاني رأيك أيها الاخ المشفق والصادق المتعصب موغر
الصدر ، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسنة على بعض
كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم ان فيها ما يخالف مذهب
الاصحاب المتقدمين والمشايع المتكلمين وان العدول عن مذهب الاشعري ولو
في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر ، فهون عليك
أيها الاخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك وقل من غربك
قليلًا واصبر على ما يقولون وأهجرهم هجرًا جميلًا ، واستحق من لا يحسد
ولا يقنف ، واستصغر من بالكفر او الضلال لا يعرف) .

وكان الغزالي قوة من المبقرية الثائرة ، يحمل بين جنبيه شحنة من
خصائص الامتياز الانساني في عقله وروحه ، يزيكها الكفاح ، وينميها
النضال .

فهو لم يكد يرى المدرسة النظامية ، مدرسته الاولى في نيسابور تخلو
من استاذ العظيم اما الحرميين الذي انتقل الى جوار ربه في سنة ٤٧٨
هجريه - وعمر الغزالي يومئذ ثمانية وعشرون عاما - حتى استوحشت
نفسه - فعزم على الرحيل ميمًا شطر المسكر حيث رحاب الوزير العالم
الفاضل نظام الملك ، وزير الدولة السلجوقية ، ومؤسس المدارس النظامية
في نيسابور وبغداد وسواهما من حواضر الاسلام ، وهي أول مدارس في
تاريخ الاسلام بعد البهيتية - كان للعلماء وطلاب العلم فيها نظام استقراري
يفرغهم للبحث والدراسة .

وكان نظام الملك مجببا للعلم والعلماء ، يميل الى التشبيه بهم ، ويود
لو انه التاريخ ادخله في زمرةهم ، شغوفًا بحسن الاحذوثة في المعرفة ؛
متمسكا بمذهب أهل السنة ، عطوفًا على الصوفية ، مجسنًا اليهم ، حفيظًا
على الديانة ؛ قوامًا بواجباته السياسية ، بذولًا في سبيل الحسب ونشر
المعرفة والعلم ، يحفل مجلسه بفحول العلماء من كل مذهب ، ودعاة الفرق
وزعماء النحل للمناظرة والبحث .

وجد الغزالي في محافل هذا الوزير العلمية فرصته الكبرى ، فاقتحمها

بشبابه جسورا على الفحول من المشيخة والكهول ، فصال وجال ، وناطر
وجادل ؛ حتى علت حجبته على سائر مناظريه في كل مجال . وظهر بجراته ،
وشهر ببراعته ؛ وقهر خصومه بمنابرته ، وانفرد بامامه خراسان ، ودان
له فيها كل ذي بيان بالقلم واللسان ، وجد به الجد ، وسمت نفسه الى آفاق
أرفع ، ورحاب أوسع ، وأى ميدان أملأ بفخائر العلم والمعرفة من محط
رجال الفطرفة ، دار الخلافة بفداد ؛ فهي اذ ذاك موئل الفصحى وملاذ
الاسلام ، وملجأ الانام ؛ ومطعم كل عبقري في فنون العرفان .

لقد أقبل نظام الملك على الفزالي لما رآه فيه من مخايل العبقرية .
وهو ذنات الإمامة ومعالم الفضل والديانة إقبالا يقط في نفس الفزالي دواعي
المجد ، ورشح كبار الآمال وحرك منه رغائبه في غزو محافل بفداد عاصمة
العراق بعد إمامة خراسان ، وبهما تتم إمامة دنيا الناس في ذلك الزمان

رأى نظام الملك أن مدرسته النظامية في بفداد في حاجة الى عروة
تضفي عليها من جلال التقديس التاريخي وقدااسة المعرفة ما أضفى استاذ
الاستاذين امام الحرمين من قبل على نظامية نيسابور ، فرسم للفزالي - وقد
وجد فيه طلبته - بالتوجيه اليها ليل رئاسة تدريسها واستاذية روادها
من اعلام العلماء ومتكلمي طلاب العلم من ذوي الاختصاص الذهني والامتنياز
الفكري

استجاب الفزالي ونهض حازما عزائمه الى حاضرة الدنيا وجامعة المعارف
بفداد - وألقى بها عصا الترحال ، وتولى مهام منصبه ، وقام - رئيس
والمناظرة ، وأعجب به جهابذة الفكر النحارير إعجابا فرقت نوازع المعجبين
ومشاربيهم ، بين الإعجاب القائم على دعائم تقدير المحبة والغبطة بامام كان
هؤلاء المعجبون يفقدونه حسا مشهودا في زعامتهم ويتراوون في أحلامهم
أملا طائرا في آفاق الاسلام ، حتى تمثلوه بينهم حقيقة وجودية تقودهم من
نصر الى نصر ، وبين الإعجاب القائم على التقدير لقوة فكرية قاهرة افتقدوها
هؤلاء المعجبون في زعامة مناهضتهم حتى غافستهم وهم في نشوة الإعجاب
بأنفسهم قادهستهم وأطاحت بأباطيلهم ، وأفاقوا من غشيتهم على صليل
سلاح من الحجة الدامغة لم يالفوه في معاركهم الجدلية مع خصومهم ، وهم

بنظروهم الى هذه القوة في أحاب هذا الامام وكأنما في صدورهم حسك
السعدان ، أو ضرام الليران . ولقد صدق عصرية المؤرخ الثقة عبد الغافر
الفارسي في حديثه عنه يومئذ اذ يقول : (وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد
إمامه خراسانه امام العراق) .

هذا الوضع التاريخي الذي وضعت فيه شخصية الفزالي لا ينبغي

الاعتماد عليه وحده في تحديد معالم تلك الشخصية ، ووضعها في مكانها من الحياة الفكرية .

ومفتاح شخصية الغزالي المفكر مائل - في رأينا - في تتبع أطوار حياته ، ودراستها مرحلة مرحلة ، دراسة مرتبة ؛ تستهدف في منهجها معرفة ما كان عليه من السلوك ، وما أنتجه في كل طور ومرحلة من أطوار ومراحل تلك الحياة من الأفكار والأعمال ، ثم الكشف عن صلة كل مرحلة وطور بما سبقه من اصوار ومراحل ، لأن الغزالي كان في حياته متوثبا سريع « التطور » كثير الاطوار ، متحفز النفس ، فوار العقل ، مستوفز النصر . ثم عبر حياته بهمة والاستمرار : فهو اذا هدا بجسمه واعتزل الناس والحياة في بعض اطوار حياته ، فان روحه كانت في هذه العزلة المغلفة بالهدوء ، متوثبة ، وقلبه كان فيها يغلي غليان القصور تشتعل من تحتها النيران ؛ تفور نفسه ؛ ويتوثب عقله بحثا وراء الحقيقة التي كانت تتراءى له في كل طور من اطوار حياته في إطار من صنع هذا الطور الفكري والاجتماعي .

ولدت له الحقيقة بظلالها الباهتة في طور تصوفه البدائي التقليدي وهو في طور الطفولية والصبا على يد شيخه ومربيه الاول ، ذلك البورفي صديق ابيه ، ووصيه عليه فعلق منهما بقلبه ووجد أنه ما يعلق بالنفس المرهفة من آثار الرؤى الصادقة والاحلام المشرقة .

ثم تراءت له في دراسة الفقه على منجذب الامام الشافعي الذي درس اوافله في صباه بيهمة دحوس على شيخه ابي حامد الرذائي ، قال تاريخ الدين السبكي في الطبقات : وهذا الرذائي أحد اشياخ الغزالي في الفقه تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين .

ثم رحل الغزالي لدراسة الفقه بأوسع مما وجده عند الرذائي الى جرجان ، وعلق عن الامام ابي نصر الاسماعيلي (١) - كما يقول ابن السبكي في الطبقات - التعليقة ، ثم عاد الى بلده «طوس» يحفظ ما علق وكتب ، ومكث في حافل ذلك ثلاث سنين كما يحكيه عن نفسه في روايه أسعد الهنسي ، خشية أن يفقد علمه بفقد تعليقه كما وقع له في حادث قطع الطريق عليه وهو عائد من جرجان ، وهي حكاية مشهورة ، ملخصها أن الميارين قطاع الطريق سلبوه جميع ما كان معه ، قال الغزالي : فتبعتهم فالتفت الى مقدمهم ، وقال ارجع ويحك ، والا هلكك ؛ فقلت له : اسالك بالذي ترجو منه السلامة ان ترد على تعليقتي فقط ، فسا هني بشيء تنتفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاصة

(١) يظهر أنه وقع التباس بين ابي نصر هذا وهو متوفى سنة ٤٠٥ هـ والغزالي ولد سنة ٤٠٥ هـ فقير معقول مشيخته للغزالي وبين ابي القاسم الاسماعيلي ، وهو من أسرة ابي نصر وكانت وفاته سنة ١٧٧ هـ فمعقول

ان يكون هذا هو شيخ الغزالي .

هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف ندعى
انك عرفت علمها وقد اخذناها منك لتعبردت من معرفتها وبقيت بلا علم
ثم امر بعض اصحابه فسلم الى المخلاة فقلت لنفسى : هذا مستنطق انطقه
الله ليرشدنى فى امرى ، فلما وافيت طوس اقبالت على الاشتغال ثلاث
سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم
اتجرّد من علمى

وهذه الحكاية مرتبطة برحيل الغزالي من بلدة «طوس» الى جرجان
بعد ان استوفى ما عند شيخه الرذكاني من الفقه ، وأراد ان يتسع فى
دراسة الفقه بالاخذ عن الامام ابي نصر الاسماعيل فقيه جرجان فى عصره
ولنا فيها وقفة .

أولاً : ان رحيل الغزالي من طوس الى جرجانه فى مبدأ حياته لم يذكره
عصره عبد الغافر مع انه اطلال الرشاء فى ترجمة الغزالي وأبدى فيها
واعاد .

ثانياً : هذا الرحيل أغفله ابن السبكي نفسه فى ترجمة أول شيخ
للغزالي فى الفقه وهو ابو حامد الرذكاني ، وجعل التفقه عليه قبل رحلته
الى امام الحرمين ولم يشر الى رحلته لجرجان .

ثالثاً : الامام ابا نصر الاسماعيل الذى تقول الرواية عنه ان الغزالي
علق عنه تعليقاته المذكورة فى الحكاية توفى - كما يقول ابن السبكي نفسه
فى الطبقات - سنة خمس وأربعماية ،

والغزالي ولد فى سنة خمس مائة وأربعماية ، فكيف أخذ عنه ؟

ولهذا نرى ان هذه الحكاية من كثرة الرواة ، وقبلها ابن السبكي
تكثر أيضاً فى شأن الامام الغزالي ، الا أن يكون فى الأمر التباس فى
تواريخ الرجال ، وهذا شيء لا يقوم عنده الا على شك مبعثه حسن الخلق
فى أهل العلم ، وقد ذكرنا فى هامش ص ٣٩ ما يكشف هذا الالتباس .

وأياً كان الأمر فانه المحقق من التاريخ ان الامام الغزالي طلب أول
مأطبل من العلم بعد مرحلة التربية الصوفية فى طفولته ، علم الفقه
فدرس منه فى صباه ما تهيا له ، ثم رحل الى نيسابور ، وكانت إحدى
حواضر العلم والمعارف ، وفيها تتلمذ على مؤسس شخصيته العلمية سناً .
الاستاذين الامام عبد الملك الجويني امام الحرمين (١) ، وكان هذا الامام
أحد العقول الاسلاميه الغذة فى عصره ، وكان قيم المذهبين ، مذهب الفقه

(١) توفى سنة ٤٧٨ هـ

بنى ، رسول الامام الشافعى ، ومذهب ائتكلام والجدال على اصول
مذهب الامام الاشعرى ، فوجد فيه الغزالى طلبته المرجوة وضافته
المنشودة ، فلزمه - وهو فى سن انشباب والفتاء - وجد واجتهادونافس
وزاحم حتى برح فى افقه والحلاف والبدال ، وفاق اقرانه فى اصول الفقه
والعقائد وانطلق ، وفى هذا الطور من حياته تصدى للمناظرة والجسدل
واراد على المخالعين من اساطين اعزله ، ودعايق التعليمية القائلين بالامام
المعصوم : وان انجوبة شى فهم مناهب مخالفيه وارانهم ، يقررهما
قبل الرد عليها باهون واوضح مما يقررها اصحابها حتى عيب عليه ذلك
وقيل له : انك تقرر شبه خصومك ومذاهبهم بما لم يستطيعوه فكان
يعتدر عن صنيعة عدا بموئ : انى قصرت فى تقرير شبه الخصم : ان
ارمى بعدم فهم للامهم .

وداع صنيعة فى هذا الطور من حياته ، وتكالب عليه ارباب النحل ،
وتالب عليه زعماء الفرق ، ورموه عن قوس واحدة ، فرسخ لهم طوده ،
فلم يفلوا له قناة ، وتكسرت على صخرة عزائمه سهامهم فلم يفلوا له
سفاه ، وقد فتح عليه الجدل والخوض فى علم الكلام اربابا من مسائل
الفلسفة الالهيه فى العقائد ، فدرسها على اساتذة امام الحرمين مع المنطق
والحكمة حتى احكم ذلك كله - كما يقول ابن السبكي - ودرسها
استقلالاً من غير معلم او استاذ موفق - كما يقول الغزالى عن نفسه (تم
انى ابتئات بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا انه
لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى
يسبون اعلمهم بى اهل العلم ثم يزيده عليهم ، ويجاوز درجته فيطلع على
ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغاية ، فاذا ذلك يمكن ان يكون
ما يعبه من فساد حقا ، ولم ار احدا من علماء الاسلام صرف عنايته
وهيمته الى ذلك ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد
عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار
بها بغافل عامى ، فضلا عن يدعى دقائق العلوم فعلمت ان رد المذهب
قبل فهمه والاطلاع على كنهه رعى فى عماية ، فشمزت عن ساق اجد فى
تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ
ومعلم واقبلت على ذلك فى اوقات فراغى من التدريس والتصنيف فى
العلوم الشرعية . . . فاطلعتنى الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات
المختلصة على منتهى علومهم فى اقل من سنتين ، ثم لم ازل اطلب على
التفكير فيه بعد ، فهمه قريبا من سنة اعاوده واتفقد غوائله واغواره حتى
اطلعت على ما فيه من خسداع وتلبيس وتحقيق وتخيل اطلعا لم

اشك فيه (١)

(١) المنقذ من الضلال

والغزالي رحمه الله يصف نفسه في هذا الطوار - وعمد أهم أطوار حياته ، وأعظمها ثورة مع نفسه ومع الحياة الفكرية عامة - فيقول (ولم أزل في عنفوانه شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن . وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لهذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، أتهجم على كل مشكلة واقتحم كل ورطة وأتفحص عقيدة كل فرقة ، استكشفت أسرار مذهب كل طائفة ، لامتيز بين محق ومبطل ، ومتمسك ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطائنه ولاطاعريه الا وأراد . أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا الا وأقصده الوقوف على كنه فلسفته . ولا متكلما الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفي . الا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا وأتجسس وراءه ملتنبية لأسباب جرائه في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول امرى وريمان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبهتي ، لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا .

وهذا النص واضح جليا في ان الغزالي يصرح بأنه انحلت عنه رابطة التقليد ودخل في زمرة الائمة المجتهدين من احرار الفكر في اوائل سن الشباب ، لانها هي السن التي تكون قريبة عهد بسن الصبا ، وتلك هي سنة أيام تلميذته لامام الحرمين ، وهي مدة لا تقل في التقدير التقريبي المبنى على تسبع أطوار حياته عن ثمانى سنوات ، وكانت اخصب أيامه

أى تقليد تحرر منه الغزالي ونى علم حل عنه رابطة ذلك التقليد

وهنا نتساءل ، أى تقليد هذا يقول الغزالي انه قد انحلت عنه رابطته نتيجة لتعطشه الى ادراك الحقائق ، واقتحامه ببحر العلوم والمعارف اقتحام الجريء الجسور ، وخوضه غمرة الفكر ، وتوغله فى خضم كل مشكلة ، وتهجمه على كل معضلة ؟ اهو تقليد عام فى جميع العلوم والمعارف والفنون التى عرفها عصره ؟

هو تقليد خاص بأصول الدين وعقائده ؟

ونتساءل مرة أخرى ، أى علم هو الذى استبحر فيه الغزالي ، وعرف مداخله ومخارجه واستوعب طواهيره ، وكشف الفطاء عن بواطنه ، وسهر فى قضاياها ومسائله حتى كانت كأنها من بنات أفكاره وصنعه قريحته وأصبح فيها الامام الذى لا يرجع الى امام ؟

والذى يؤخذ من كلام للغزالي انه يقصد الى التقليد فى العقائد ؟ بدليل قوله فى النص السابق (وأنكسرت على العقائد الثورثة) وبدليل قوله فى آخر كتابه « ميزان العمل » (تحت عنوان بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه : لملك تقول : كلامك فى هذا الكتاب انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية والى ما يطابق مذهب الاشعرية وبعض المتكلمين ولا يفهم الكلام الا على مذهب واحد ؟ فما الحق من هذه المذاهب ؟ الى ان يقول فجانب الالتفات الى المذاهب ، وأطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب)

ومن ثم يظهر انه لا يدخل التقليد فى فروع الفقه فى قصده ، والا تكون انحلت عنه رابطة التقليد فيها وهو فى مؤلفاته الفقهية كالسيط والوسيط والوجيز يقرر مذهب الشافعى وان كانت له اجتهادات فى بعض فروع الفقه والمسائل العارضة فهى لا تخرجه عن التقليد فى دائرة اصول امامه الشافعى رضى الله عنه ، فهو بحسب اصطلاح الفقهاء مجتهد مذهب . . . بلغ درجة الترجيع بين اقوال شيوخ المذهب ، وقد يجرى الغزالي على مسجتيه فى التحرر الفكرى فيرجع مذهب غير الشافعى عليه كما صنع فى مسائل المياه وازالة النجاسة حيث رجع مذهب مالك فيها وارتضاء الغزالي

فى كتاب (جواهر القرآن) يهون من شأن الخلاف فى علم الفقه ، ويراه قريبا ويرى أن الخطأ فيه غير بعيد من البواب ، وينأسف نادما على أنه ضيع شطرا صالحا من عمره فى تصنيف الخلاف منه ، مع اعترافه بأن الحاجة إليه تتم لتعلقه بصلاح الدنيا أولا ثم بصلاح الآخرة ، ولذلك رزق هذا العلم مزيد بحث واطناب وعظم فيه الجاه والخشمة مما وفره السواعى على الافراط فى تفريعه وتشعبه ويرى أن ذلك مخالف لطريقة الاولين من السلف الصالح الذى كانوا لا يستفرون جملة العمر فيه • شمس

إن الغزالي يعترف بأنه لم يكن ممن عنوا بالحديث والخلافيات فى مسائل الفروع ، وهما من أوائل ما يعتمد عليه المجتهد فى الفروع الفقهية ، وموضوعات التعمد والمعاملات بين الناس ، وقد يكون من أسباب ذلك أن عصر الغزالي كان عصر جدل فى العقيدة ، وكان الفقه التشريعى فيه قد استقرت أصوله وكثرت مؤلفاته وتعددت تفرعاته ،

وانحلال رابطة التقليد فى العقائد وهو الذى يقصده الغزالي واجب كل من تأهل للنظر فى الأدلة ، فهل يقصد أبو حامد بذلك منهجه فى علم الكلام ؟ انه يأتى على البحث أن يؤمن بأن علم الكلام أخرجته عن التقليد الى الاجتهاد لانه يقول (ثم انى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعاءة وطالمت كتب المتقدمين المحققين منهم وصنعت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وانما مقصوده حفظ عقائد اهل السنة على اهل السنة ، وحراستها عن تشويش اهل البدعة • ولكنهم - أى المتكلمين - اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلسلها من خصومهم اضطروهم الى تسليمها أما التقليد او اجماع الامة او مجرد القبول من القرآن والاخبار ، فلم يكن الكلام فى حقي كافيا ولا لدائى الذى كنت اشكوه شافيا) ويقول فى كتاب « جواهر القرآن » ومن قسم محاجة الكفار ومجاد لتهم يتشعب علم الكلام ، المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم شرحناه على طبقتين: مسينا الطبقة القريبة منهما الرسالة القيسية والطبقة التى فوقها « الاقتصاد فى الاعتقاد » ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ولا يكون هذا العلم مليا بكشف الحقائق •

فعلم الكلام اذن لم يكن هو الذى حل رابطة التقليد فى العقائد عن الامام الغزالي على اننا لاندري كيف أن مجرد القبول من القرآن او الاخبار المقطوع بها عند النبى صلى الله عليه وسلم لا يحل رابطة التقليد عن يفهم المقطوع بها عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يصل رابطة التقليد عن يفهم طرائق الاستدلال بها ؟

كان الغزالي لا يرى ان الأدلة الثقلية اذا كانت قطعية انصروا والدلالة تكفى فى حل رابطة التقليد وانكسار العقائد الموروثة ، وما موقعه من

جمهور الصحابة وسائر الائمة قبل ظهور طرائق الاستدلال الكلامية ؟
واذا كان علم الكلام بطرائقه الاستدلالية ، ومجرد القبول من القرآن
والسنة الثابتة لم يحل رابطة التقليد عن الامام الغزالي فأى علم وراءهما
يمكن أن يسند اليه حلها أهو علم الفلسفة ؟ وقد درسه الغزالي بعد فراغه
من علم الكلام الذى لم يكن وافيا بمقصوده * وكانت دراسته للفلسفة -
كما - يقول - من قراءة كتبها دون موقف ولا معلم فى أوقات فراغه
من دروسه وتصنيفه ، ويقول انه حصلها حتى بلغ فيها انهفاق أعلم علمائها
فى سنتين وودد النظر بعد فهمها قريبا من سنة حتى اطلع على ما فيها من
خداع وتلبيس وتحقيق وتخيل اطلعا لم يشك فيه .

وهنا نتساءل اية فلسفة هى التى يقصدها الغزالي بهذا الكلام الذى
تبجح به فى كتابه المنقذ من الضلال ؟ أهى الفلسفة التى يعرفها الفلاسفة
الغدامى من الاوائل بجميع أبوابها وفروعها ؟ ويعرفها الفلاسفة الذين
نشأوا فى ظل الاسلام ، الذين رد عليهم وكفرهم كابن سينا والفارابى
والكندى وامثالهم ممن تقدمه زمانهم .

ان الغزالي يجيب عن ذلك فى بساطة وثقة بالغة فيقول (فاطلعنى
الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلطة على منتهى علومهم
...) ثم أخذ يعدد طوائفهم فذكر (الدهريين) و (الطبيعيين) و
(الانهيين) وذكر أن علومهم بالنسبة الى غرضه تنقسم الى رياضيسية ،
ومنطقية وطبيعية واهية ، وسياسية ، وخلقية ثم تكلم على كل قسم ادخل
تحته فنونا .

ونحن نقف فلا نستطيع الحكم على أبى حامد فى هذا ، ولا الحكم له ،
وان كنا نؤمن انه لا حرج على فضل الله ، مع أنه ذكر فى مقدمات التهافت
ان آراء الفلاسفة منتشرة وطرقهم متباعدة ، ومع ان مؤرخيه من أمثال
أبن السبكي وعبد العافر ذكروا فيما ذكروه من الفنون التى أحكمها على
استاذهم امام الحرمين العلوم الدقيقة والفلسفة .

ومن ثم فاننا نظن ظلنا قويا فى توجيه كلام أبى حامد واطلاعه على
الفلسفة فى مدى - سنتين من مجرد قراءة كتبها دون معلم واستاذ ، ان
أبا حامد أخذ عن استاذهم امام الحرمين مبادئ الفلسفة ممزوجة فى علم
الكلام والجدل ، فرسخ منها فى ذهنه كثير من أصولها بمصطلحاتها ولا
مستعينا بطلالة كتبها على ضوء ما أخذه عن استاذهم امام الحرمين ، وقد
كان له فيها القدح الملى غير انه ماكان يظهر بها كما يدل على ذلك كلامه
فى كتاب البرهان الذى اشتمل على معضلات فلسفية لا تزال مغطاه على

المقول ويدل لذلك كلام عبد الغافر حيث ذكر الفلسفة في ضمن العلوم التي برع فيها الغزالي على يد استاذه أمام الحرمين ، كما يدل على تبحر أمام الحرمين في الفلسفة وإن لم يشهر بها قوله فيما يرويهِ ابن السبكي في الطبقات عن ابن السمعاني في الذيل انه قرأ بخط - الحافظ بن جعفر الهمداني ، قال ، سمعت أبا المعالي الجويني يقول : لقد قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ثم خليت أهل الاسلام باسلامهم فيها وعلوهم الظاهرة وركبت البحر الحضم وغصت في الذي نهى عنه أهل الاسلام منها . كل ذلك في طلب الحق وكنت أهرب من التقليد والآث قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز فان لم يدركني الحق بلطف بره فاموت على دين العجائز وتختتم عاقبة امرى عند الرحيل على نزهة أهل الحق وكلمه الاخلاص ، لا اله الا الله فالويل لابن الجويني *

قال ابن السبكي : قلت ظاهر هذه الحكاية عند من لا تحقيق عنده التبشاعة وانه خلى الاسلام وأهله ، وليس هذا معناها ، بل مراده انه أنزل المذاهب كلها في منزلة النظر والاعتبار غير متعصب لواحد منها ، بحيث لا يكون عنده ميل يقوده الى مذهب معين من غير برهان ثم توضح له الحق وانه الاسلام فكان على هذه الملة عن اجتهاد وبصيرة لا عن تقليد ، ولا يخفى ان هذا مقام عظيم لا يتهيأ الا لمثل هذا الامام ، وليس يسمح به لكل أحد ، فان عائلته تخشى الا على من برز في العلوم وبلغ في صحه الذهن مبلغ هذا الرجل العظيم *

ونتبح هذا الظن بظن آخر وهو أن الغزالي قرأ من الفلسفة مختصرات استوعب اكثر ابوابها وتوسع في باب الالهيات لصاحبه القوية بعلم الكلام وانه اعتمد على كتب ابن سينا والفارابي اللذين اعتبرهما أقوم انفلاسة بمذهب أرسطو ، وعبارة ابن سينا قريبة الفهم اكثر من عبارة غيره والناظر في كتابه الاشارات يجد كثيراً من الفاظه وعباراته مزوجاً في كتب الغزالي ، ولا سيما كلامه في اشاراته عن العارفين ومقاماتهم والزاهدين ودرجاتهم وقد يكون الغزالي قاصداً هذا النحو في رده على اعتراض من اعترض عليه فقال : (ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في نصائفي في أ رار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائهم ، ولم تفتح الى أقصى غايات المذاهب ببصائرهم ، وزعم ان تلك الكلمات من كلمات الاوائل مع أن بعضها من مولدات الغاظر ، ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد في كتب الشريعة واكثرها موجود معناها في كتب الصوفية ، وهب انها لم توجد الا في كتبهم فاذا كان ذلك كلاماً معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلا ينبغي ان بهجر وينكر ؟

بهذا الظن يمكن حل عقدة التوقف في قبول دعوى الامام الغزالي
في اطلاعه على الفلسفة ودراستها دون استاذ ومعلم حتى كان أعلم من
أعلمهم .

ولكن هل هي الفلسفة التي حلت عنه رابطة التقليد بعد اذ عجز عن
ذلك علم الكلام ؟

إن الامام الغزالي لم يلق في الفلسفة ولا في الفلاسفة بل أنه صرح
بأنه درس - الفلسفة ليرد عليها ، ويقول في التهافت (انه ابتداء تحرير
هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت عقيدتهم وتنساقض
كلماتهم فيما يتعلق بالالهيات وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراتهم التي هي
على التحقيق مضاحك العقلاء) .

وإذا كان هذا الكلام صريحا على القدماء من أمثال ارسطو واستاذه
افلاطون ، فإن الغزالي لم يحجم عن التصريح في كتابه المنقذ عن ادخال
من تبع القدماء من متفلسفة الاسلام كابن سينا والفارابي معهم في
التفكير بما كفرهم به .

فعلم الفلسفة اذن ليس هو الذي حل رابطة التقليد عن الغزالي في
ترب عهده بمن انصبا .

وإذا كان علم الكلام والفلسفة عجزا عن حل رابطة التقليد عن
الغزالي فما الذي حلها عنه ؟ أهو التصوف الذي انتهى اليه الغزالي ، ويقول
عنه (ثم لما فرغت من هذه العلوم اقبلت بمهيتي على طريق الصوفية وعلمت
ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس
وانتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الحبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية
القلب عن غير الله تعالى) .

ويقول (اني علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى
خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم اصوب الطرق وأخلاقهم
أزكى الاخلاق ، بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على
اسرار الشرع من العلماء لغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما
هو خير منه لم يجدوا انيه سبيلا) .

والصوفية في نظر الغزالي هم أهل الكشف اللدني الذي هو (نوريقذفه
الله تعالى في الصدر) دون نظر في دليل أو ترتيب كلام ، كيف يحل
هذا رابطة التقليد في العقائد ؟ قد يكون مسلما بالنسبة لشخص في
ذاته اذا تحقق له ما يقوله الصوفيون من الكشف الذي ينتهي كما يقول
الغزالي الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة
الوصول وكل ذلك خطأ لكن الحالة اذا سلمت الى اربابها وحلت عنهم

رابطه التقليد في ذواتهم فقط ، فهي ليست حالة العلماء المجتهدين في تأسيس عقائدهم هم على النظر والبرهان .

لكن الغزالي رحمه الله يحل هذا الاشكال بما يقوله في كتاب (ميزان العمل) تحت عنوان (المذهب الثالث) ما يعتقد الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع او بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهجه) .

ومعنى ذلك أن الإنسان يعيش مع الناس بمذهب وعقيدة ، ومع نفسه فيما بينه وبين الله بمذهب وعقيدة ولا ندري ما هذا ؟ الا ان يكون شيئا جاء من قبيل خبيثات الفلسفة أو مذهب التعليمية أصحاب الامام المصوم والسرا المكتوم ، والامام الغزالي يرد عليهما ويزيف مذهبهما .

متى تصوف الغزالي ؟

واذا قبلنا أن التصوف يمكن أن يحل رابطة التقليد في خاصة الانسان ودخل نفسه وهو الذي حل رابطة التقليد عن الغزالي ، فمتى تصوف الغزالي تصوفا انتهى به الى الكشف عن حقائق الغيب فيكون الايمان مع هذا الكشف ايمان مشاهدة وحضور وهذا لا تقليد فيه ؟ هل تصوف في سن قريبة عهد بسن الصبا التي يقول أنه انحلت عنه فيها رابطة التقليد ؟

ليس بين باحثي الغزالي من يقول انه تصوف مبكرا ، سوى ما غتننا اليه النظر من بداية حياته على يد شيخه الصوفي الذي وصاه ابوه عليه وعلى أخيه ، وقد استروحنا أن تربية الغزالي بدأت صوفية غير ان هذه الحالة لم تتصل ، لان طلبه العلم وخوضه بحار العلوم واشتغاله بنضال الفرق المخالفة قطعها ، فبقى ما بقي منها راسبا في قاع نفسه حتى حركته النهاية « الصوفية » العظمى التي انتهت اليها الغزالي في آخر حياته بعلمه وعقله وقلبه .

على أن بعض الروايات يقول : أن الغزالي كان ينكر على الصوفية احوالهم حتى هداه الله لطريقتهم على شيخه النساج . روى الزبيدي في شرح الاحياء عن قطب الدين .

محمد بن الازدي قال : قال حجة الاسلام : كنت في بداية امرى منكرا لاهوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صعبت شيخي يوسف النساج بطوس ، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فأرأيت الله في المنام ، فقال لي : يا أبا حامد ، قلت : أن الشيطان يكلمني

قال : لا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يا أبا حامد ذر مساطرك وأصحب أقواما جعلتهم فى أرضى محل نظرى ، وعسم الذين يباعوا الدارين بحبى ، فقلت : بعزتك الا أذقتنى برد حسسن الظن بهم ، فقال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فأخرج منها مختاراً قبل ان تخرج منها صاعراً ، فقد افضت عليك أنواراً من جوار قسى ففزونى ، فاستيقظت فرحاً مسروراً وجئت الى شيخى يوسف النساج فقصصت عليه المنام فتبسّم ، قال : يا أبا حامد ، هذه الواحشافى البداية معوناها بارجلنا ، بل ان صحبتنى سيكحل بصريصيرتك بائمة التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الابصار ، فتصفو من كدر طبيعتك وترقى على طور عقلك ، وتسّمع الخطاب من الله تعالى كموسى (انى انا الله رب العالمين) .

هذه رواية نذكرها لانعرضها على العقل ليحكم لها أو عليها ، لان أحوال الصوفية ومدركاتهم فوق طور العقل ، كما يقولون عن أنفسهم وانما ذكرناها لنبين اننا نقف منها موقفه التشكك ، لما اشتجبت عليه من انكار أبى حامد لآحوال الصالحين ومقامات العارفين ولم تطلع على شيء من الانكار فى كتب الغزالي التى قرأناها ، وانما كان ينكر على الخوليين ممن يدعون التصوف وغيرهم من فرق الضلال ، وظل على ذلك الى آخر حياته ينكر عليهم ويجاهدهم بحجة العقل وقواعد العلم والشرع ، أما صالحو القوم وعارفوهم فكان محابلهم منذ رضع البانهم الى ان فطم على ايديهم .

وفى هذه الحكاية أيضا ما يؤيد نظرية التصوف فى قول رجاله : ان العلم حجاب ، فقد قيل لآبى حامد فى هذه الحكاية ذر مساطرك وأصحب أقواما فى أرضى جعلتهم محل نظرى .
وفيهما ان الغزالي تصوف بعد ان طوف الإفاق وبحث ودرس وجادل ، ثم عاد الى بلده طوس ليستقر فيها وهناك اجتمع بالنساج وأخذ عليه الطريق فلم يكن التصوف مما عناء فى حل رابطة التقليد .

على ان هناك رواية يرويها الشعراى نقلا عن محبى الدين بن عربى تفيد ان تصوف الغزالي لم يخلصه تماما من حجاب العلم ، قال ابن عربى : (وكان الغزالي يقول : لما أردت ان انخرط فى سلك القوم وأشرب من شرايهم نظرت الى نفسى فرأيت كثرة حجبها ولم يكن لشيخ اذ ذاك - فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فانقدهح لى من العلم ما لم يكن عندى ، أصفى وأدق ما كنت أعرفه ، فنظرت فيه فإذا فيه قوة فقهية ، فرجعت الى الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فانقدهح لى علم آخر ، أرق وأصفى مما حصل عندى أولا ، وفرححت

به ، ثم نظرت فيه ، فإذا فيه قوة نظرية فرجعت إلى الخلوة ثالثاً أربعين يوماً فانتدح لي علم آخر هو أرق وأصغى ، فنظرت فيه فإذا فيه قوة مزوجة بعلم علم ، ولم الحق بأمل العلوم الدنية فعملت أن الكتابة على المخطوطة كانت كتابة على الصفاء الأولى والطهارة الأولى ، ولم أتميز عن النظائر إلا بعض أمور ، قال ابن عربي : رحم الله أبا حامد ما كان أكثر انصافه وتحريزه من الدعوى .

وهذه الرواية أظهر في أن العلم حجاب عن الفتوحات الدنية ، وإنما يكون الفتح عن طريق العلم في باب العلم ، وهي تدل على أن مقام الغزالي في التصوف محدود ، وأنه لو تصوف منذ بدايته على مقتضى فطرته لادرک السابقين من الخارفين .

وقد يكون تفكير الغزالي في التصوف العلمي والعمل بدأ في أيام إقامته بالمسکر بعد رحيله إليها من نيسابور عقب وفاة أستاذه أمام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ وأقام بها إلى سنة ٤٨٤ هـ وكان في هذه المدة يحضر مجالس نظام الملك للمناظرة والدفاع عن عقيدة أهل السنة التي كان النظام أقيم السياسي عليها في عصره ، وكان نظام الملك سنيا صوفيا شديد التعلق بالصوفية ، شديد التعصب لهم ولبيادتهم ، مسرفاً أشبه الأسراف في البذل عليهم وأعداد التكايا لهم ، وخدمتهم ، وتوفير الفراغ لهم لتعبدهم وصفاء أوقاتهم .

حتى واجه الخليفة بتلك القول الماثورة عنه وهو يعاتبه لاسرافه في إنفاقه عليهم ، وشغله بهم وأهـمال الجيوش ، وأمر الدولة وسياستها .

(لقد أقيمت لك عباداً بالليل لو صاحوا الزلزلت الدنيا بخصومك .
ومادت بهم الأرض) (١)

والغزالي شديد الحساسية مرهف الشعور ، عبقري النفس ، لو لدغى العقل ، لمآح الخاطر فلا يمكن أن يفوته ، وهو في مكانته من نظام الملك ، ملاحظة تعلق النظام بالطائفة وبذله العناية الفائقة في خدمتهم والغزالي إذا لاحظ تحرك ، وإذا تحرك مضى قلباً ، لا يلتفت خلفه فهل يكون خاطر الغزالي تحرك نحو النظر في شأن الصوفية وغلوهم وأحوالهم ومقاسماتهم من يومئذ ، هو لابد أن يكون قد جرى انتظام الحديث في أمرهم يقول الأستاذ طه عبد الباقي سرور : (كان لنظام الملك فضل توجيه الغزالي إلى التصوف والصوفية وقد كان شديد

(١) الغزالي للاستاذ طه عبد الباقي سرور

الخصومة لهم شديدة الاسراف فى تقديمهم ، فاندفع الغزالي كعادته يبحث
كتبهم ويفشى مجالسهم ، بل ويشترك فى حلقات ذكرهم) *

ولكن الغزالي عاد الى التدريس فى مكان استأذنه امام الحرمين.
بنيسابور ، وله فيها عهود فى الجدل والمناظرة أيام تلمذته على الامام ،
ويظهر ان ذلك شغله عن مداومة النظر فى التصوف فتوقف الى حين ،
او على التحقيق صرفته عنه دواعى منصبه الذى تولاه ، وهو منصب
خليل جدا ، وكان فيه مرموقا منظورا اليه ، والتصرف يطالبه بقطع
علاقته بالدنيا ، وهو بهذا المنصب مغمور فيها ، فلم يتسع له المجال
للتأبسة السير مع الصوفية ، ولكننا لا نعتقد ان الغزالي وهو لماح الخواطر ،
عظيم الروح ، عبقري العقل ، تجرد بمنصب التدريس من كل اثر
لصوفية المعسكر الذين عاشهم أكثر من أربع سنوات ، واذا أضغبا
هذا الاثر الى الاثر الاول التقليدى على يد شيخه الاول فى طفولته خلص
لنا ان الصوفية داعبت عقل الغزالي وروحه منذ طفولته ، وفى عنفوان
شبابه ، ثم جدت به وأحاطته بشتياكها فى رجولته المستحكمة ، فجذبته
اليها جذبا اضطراريا ، فكان منها وكانت منه ، وكان لها المدد والمفوه البارز ،
والعقل المدافع ، والروح المشرق ، والقلب الشفاف ، فلما فرغ لها بسط
طرائقها ، ومهد للناس احوالها ، وأحكم لهم اصولها حتى استقامت على
يده علما مؤصلا بقواعده وأصوله وآدابه وسلوكه *

واذا كان علم الكلام ، الفلسفة والتصوف ، لم يظهر أن واحدا منهما
هو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالي وهى علومه التى صال فيها وجال
وصنف وكتب وأخذ ورد فما توجيه كلامه فى حل رابطة التقليد عنه فى
سن الصبا *

علم الكلام والتصوف
اشتركا في حل رابطة التقليد
عن الغزالي

والغزالي ينظر الى علم الكلام نظرين :

انظر الاول ، باعتباره علما يقوم على صحة النظر في الأدلة والبراهين العقلية التي تحقق قضاياه وتثبتها اثباتا يحميها من زعزع المناقضات والمعارضات والشبه - يؤدي الى ضرب من اليقين العقلي في حدود المقاييس العقلية المعتبرة في النظر البرهاني عند من يسلمها .

وهذا النظر هو ما يقصده الغزالي بقوله عن هذا العلم : (فصادفته وافيا بمقصوده) وهو بهذا الاعتبار مؤد بمن حصله تحصيل كاملا ، ونظر فيه نظرا استدلاليا الى أن تنحل عنه رابطة التقليد العقائدي بالنسبة للعقائد الحققة المأخوذة أولا بالتقليد النقل عن الكتاب والسنة من نصوصهما القطعية ومن استنبط علماء الاسلام فيما لا اختلاف فيه ، وهذا لا يسمى في نظرنا تقليدا بالمعنى المشهور بل هو أجمل أنواع الاجتهاد .

وقد صرح الغزالي في المنقذ من الضلال بأن مقصود هذا العلم (هو) حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن (والاخبار) .

والغزالي بلغ ذروة هذه المرتبة ، فكان اماما نظارا ، جادل عن عقيدة أهل السنة ودفع عنها شبه خصومها ومناقضاتهم ، دفعا جعل الناس يلوذون به باعتباره الحارس للعقيدة بقوة حجته ، وهذه مرتبة لا يبلغها الا من انحلت عنه رابطة التقليد في العقائد الموروثة) .

وهو يقول عن أصحابها : (ولقد قسم طائفة منهم بما أيلهم الله تعالى فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلفاة بالقبول من النبوة والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة) .

وقد كان هو في عصره امام هذه الطائفة ، وعلى هذه الدعامة في

الجدل والمناظرة قام مجده في نيسابور وبغداد في رحلته الأولى إلى مجلس استاذة امام الحرمين ، وإلى ولايته التدريس في المدرسة النظامية في بغداد ، فقد انتدب نفسه للدفاع عن عقيدة أهل السنة ، ولدبته بعقيدته التجليلية المناهضة للمعتزلة ، والتعليمية ، وهما أقوى الطوائف المعارضة في عصره ، فأحمد جلوة بدعتهم وتعلق الناس به وبلغ من الصيت وعريضة السمعة ما لم يبلغه أحد من أقرانه .

ومن هنا يترجح عندنا ان علم الكلام بهذا النظر هو الذي حل رابطة التقليد عن الغزالي وبلغ من مبلغ الاجتهاد والتحقيق ، وان كان ابن السبكي يشكك في ذلك فيقول ولم أر له مصنفا في أصول الدين بعد شدة الفحص الا أن يكون قواعد العقائد ، وعقائد صغرى ، وأما كتاب مستقل على قاعدة المتكلمين فلم أره .

وهذا التشكيك لا يقوم على أساس من اليقين ، لان عدم رؤية الشيخ ابن السبكي رغم شدة تفحصه كتابا مستقلا في أصول الدين على طريقة المتكلمين ، لا يدل على عدم الوجود ، والغزالي نفسه يصرح بأنه صنف في علم الكلام بعد أن أحكمه على استاذة امام الحرمين مصنفات ويؤيد ذلك :

أولا : مواقف الغزالي التي تواترت أخبارها منذ لقي شيوخه الجويني ، وتلقى عنه مذهب الشافعي والاصليين والمنطقي ، وبرع في ذلك وأحكمه ، وانتفض في حياة استاذة للرد على أرباب المذاهب والنحل وأبطال دعاويهم ، فتهادوا امام صولة منطق وقوة عارضته وساطع حجته .

ثانيا : على ما بثه في مؤلفاته الاصولية والفلسفية والجدلية والعقائدية ، فانها كلها تنضج بالذب عن عقيدة أهل السنة ومدافعة خصومهم بلوازم مسلماتهم ، وهي الطريقة المفضلة عند الغزالي ، انسابه في مؤلفاته حتى كتابه الذي أفرده للرد على الفلاسفة واطهار ضعف مقالاتهم وكشف ما فيها من خداع وتلبيس ، وهو الكتاب المعروف باسم (تهافت الفلاسفة) الذي عقده خصيصا لموضوعه ، فانه يجرى فيه معهم على نمط الالتزام وتهذا ترى الفيلسوف ابن رشد يحمل عليه ويتهكم به في كتابه (تهافت التهافت) الذي رد به على الغزالي ، ويرمي به بالجهل بالفلسفة ، وناقشه باعتباره اشعريا أو متكلميا بلسان الاشاعرة اللذين هم أهل السنة في نظر علماء الكلام ، وهذا بين مبثوث في ثنائيا هنا الكتاب .

ثالثا : للغزالي كتاب « الإقتضاد في الاعتقاد » وهو من أعمق وأوسع ما كتب في موضوعه ، ولا ندري هل يعنيه ابن السبكي في

ضمن الكتابين اللذين ذكرهما ، فيكون من قبيل تصدد الاسماء ، أو لم يطلع عليه وهذا بعيد ، أو أطلع عليه ولم يره كذلك ؟ والغزالي نفسه يقول في كتاب (جواهر القرآن) وهذا العلم - أي علم الكلام - قد شربناه على طريقتين ، سميئا الطبقة القريبة منهما الرسالة القدسية والطبقة التي فوقها الاقتصاد في الاعتقاد * .

النظر الثاني :

ينظر الغزالي الى علم الكلام باعتباره علما لا يفى بمقصوده الخاص به فيما بينه وبين الله تعالى فيما يطلبه من اليقين في ادراك الحقائق ادراكا تثبته الضرورة العقلية التي ينكشف معها المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم * .

هذا النظر بهذا الاعتبار هو الذي دفع الغزالي الى أن يقول عن علم الكلام بالنظر الاول : (وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ، فلم يكن الكلام أي بالنظر الاول - في حق كافيا ، ولا لدائي شافيا) * .

بيد أن أبا حامد رحمه الله يعترف ان هذا نعم في تطلب الحقيقة خاص به ، وبين كان على غراره ، ويصرح بأن علم الكلام بالنظر الاول قد يكون نافعا لغيره محققا لغرضه (فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكما من دواء ينتفع به مريض ويستضر به مريض آخر) * .

والغزالي يرى في كتابه (ميزان العمل) أن لكل كامل ثلاثة مذاهب أحدها - مذهب الآباء والاجداد والبلد الذي فيه النشوء والمعلم الذي أخذ عنه * .

ثانيها - مذهب الارشاد والتعليم لمن جاء مستفيدا مسترشدا * .

ثالثها - ما يعتقده الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع أو يبلغ رتبة الاطلاع عليه ويفهمه ، وذلك بأن يكون المسترشد ذكيا ولم يكن قد رسخ في نفسه اعتقاد موروث نشأ عليه وعلى التعصب له ، ولم يكن قد انصغ قلبه انصبغا لا يمكن محوه * .

فعلم الكلام بالنسبة للمذهبيين الاولين كاف بمقصودهما محقق للغرض المطلوب لهما ، وبالنسبة للمذهب الثالث الخاص باعتقاد الشخص فيما بينه وبين الله تعالى قد يحقق الغرض عند بعض الناس ، ويكفي لمقصوده ، وما دام هذا المذهب خاصا سريريا لا يباح به صاحبه

الا لمن كان على شاكلته حسا ومعنى فلا يحتاج للمناضلة عنه والجدل فيه ، فهو لا حاجة به الى علم الكلام ولا الى أى لون من المراهين الكلامية والادلة المنطقية التى يقصد بها حماية العقيدة من شبه المبتدعة وشغب المنحرفين .

ومن ثم يخلص للبحث :

أولا : ان علم الكلام هو الذى حل عن الغزالي رابطة التقليد العام فى العقيدة فى سن قريبة عهد بسن الصبا باعتباره مرشدا ومعلما ، ومناضلا لحماية عقيدة العامة من شبه المبطلين وأضاليل الفرق ، لانه العلم الذى أحكمه وتضلع فيه على قيمة عبقرى المناظرين فى عصره أستاذاه. أمام الحرمين ، وكان اذ ذاك فى سن يصدق عليها انها قريبة عهد بسن الصبا .

ثانيا : ان التصوف هو الذى حل عن الغزالي رابطة التقليد الخاصة به التى كان يحسبها من نفسه ويريد أن يقتلمها بيقين لا يبقى معه ريمه ولا يقارنه اماكن الغلط والوهم بحيث يوحى تحذره من يقب الحجر ذهب والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكاً فى معلومه .

وهذه مرتبة حصل عليها الغزالي - كما يقول فى كتابه (المنقذ) - بعد أن تخلخلت فى نظره دعائم المحسوسات والعقليات فى توصيلها له الى ذلك اليقين الخاص الذى يطالبه فى ادراكه للحقائق ، وبعد أن اضطربت أعصابه وتوقف عن النظر مدة كان فيها - كما يقول - على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال .

وفى ذلك يقول فى (المنقذ من الضلال) : (فتحرك باطنى الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد ائوالدين والاستاذين والتميز بين هذه التقليدات وأوايلها تلقينات وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت فى نفسى أولا انما مطلوبى العلم بحقائق الامور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى ان العلم اليقيني هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه اماكن الغلط والوهم ولا ينسج القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنه لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وانكاراً فانى اذا علمت ان العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل انى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقليبها ، وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه فى معرفتى ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه فاما الشك فيما علمته فلا ، ثم علمت ان كل ما لا أعلم على هذا الوجه

ولا اتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا امان معه وكل علم لا امان معه فليس يعلم يقينى .

ثم فقتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهئذ
الصفة الا فى الحسيات والضروريات فقلت الآن بعد حصول الياس
لا مطمع فى اقتباس المشكلات الا من الجليات وهى الحسيات والضروريات
فلا بد من احكامها أولا لا يتقن ان ثقتى بالمحسوسات وأمانى من الغلط
فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليديات ومن
جنس امان أكثر الخلق فى النظريات أم هو امان محقق لا غدر فيه
ولا غالة له فاقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات وانظر
هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها فأنتهى بى طول التشكيك الى أن
لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات أيضا ، وأخذ يتسع الشك
فيها ويقول من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حساسة البصر وهى
تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة تم بالتجربة
والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه يتحرك وانه لم يتحرك بفتة ودفعة بل
على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف وتنظر الى الكوكب
فتراه صغيرا فى مقدار دينار ثم الادلة الهندسية تدل على أنه أكبر من
الارض فى المقدار ، هذا وأمثاله فى المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس
بأحكام ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته ، فقلت
فد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة الا بالعقليات التى هى
من الاوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والايجاب لا يجتمعان
فى الشئ الواحد والنسبة الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما
واجبا محالا ، فقلت المحسوسات بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات
كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبى ولولا
ان جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى فلعل وراء ادراك العقل
حاكما آخر اذا تبجل كذب العقل فى حكمه كما تبجل حاكم العقل فكذب
الحس فى حكمه وعدم تبجل ذلك الادراك لا يدل على استحالاته فتوقفت
النفس فى جواب ذلك قليلا وأيتت اشكالها بالنام وقالت : أما تراك
تعتقد فى النوم أمورا وتخيّل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك
فى تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك
ومتقدساتك أصل وطائل فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك
بحس هو عقل هو حق بالإضافة الى حالتك ، لكن يمكن أن تطرأ عليك
حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك
نوما بالإضافة اليها فاذا أوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توصفت
بعقلك خيالات لا حاصل لها ، أو لعل تلك الحالة ما يدعيها التصوفية

انها حالتهم اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم التي اذا غاصوا في.
انفسهم وغابوا عن حواسهم احوالا لا توافق هذه المعقولات ولعل تلك
الحالة هي الموت) *

وحصول الغزالي على هذه المرتبة من اليقين التي يدرك بها الحقائق.
ادراكا يقينا لا شك فيه لم يكن - كما يقول - عن نظم دليل منطقي ولا
ترتيب كلام بقياس برهاني ، وانما كان ينور قذفه الله في قلبه فكان
ذلك النور مفتاح اكثر معارفه وعلومه كما هو شأنه مع اربابه *

وهذا امر لا يجدى فيه النقاش والبحث ، لانه وراء النقاش والبحث،
فمن انكره وطالب باقامة الحجة العقلية على صحته ووجوده ، قيل له أن.
العقل ليس هو الباب الوحيد لادراك الحقائق ، ومن قبله وسلبه فهو
مقلد لاهله أو ذائق مذاقهم وشارب من مشربهم ، والغزالي رضى الله عنه
يقول (فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقدضيق رحمة الله.
الراسعة) *

اصل التصرف وأطواره

فى الاسلام

أكثر الناس قريبا وحديثا عن « التصرف » وحاول الباحثون من القدماء والمحدثين ان يتعرفوا على حقيقة هذا اللفظ فى اوضاع اللغة - ومقاييسها الاصطلاحية ، فلم تسعفهم أصولها الوضعية وقواعدها انقياسية ، وتفرعاتها الاشتقاقية بأصل يمكن الاعتماد عليه فى صحة نسب هذا اللفظ الى أبواها .

وفى ذلك يقول أبو القاسم القشيري فى رسالته : (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل «صوفي» ، وللجماعة (صوفية) ؛ ومن يتوصل الى ذلك يقال له «متصوف» وللجماعة «متصوفة» وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قد يأس ، لا اشتقاق ، والا ظهر فيه انه كاللقب .

فأما قول من قال : انه من «الصوف» ، وتصوف اذا لبس الصوف ، كما يقول : تقمص اذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن انقوم نم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : انهم منسوبون الى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة الى الصفة لا تجيء على نحو الصوفى .

ومن قال : انه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

وقول من قال : انه مشتق من الصف ، فكانهم فى الصف الاول يخلوهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة الى الصف .

ثم ان هذه الطائفة اشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ . واستحقاق اشتقاق .

ونحن نميل الى انه لقب منقول تعريبا من لغة غير عربية ، فهو حادث مع حلول الالفاظ الدخيلة انتى فنت على السريية مع الافكار والمعانى والمذاهب الاراء فى القرن الثانى من الهجرة ، ثم يعرف معرفة لقبية لطائفه من الناس بعينها قبل ذلك فى تاريخ الاسلام ، وقد يكون عرض له شيء من التصرف اللسانى لصقله تخفيفا كما عرض لكثير من الالفاظ الوافدة .

قال الامام أبو القاسم القشيري : (إن المسلجين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية «علم» سوى صحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ لا فضيلة فوقها ، ف قيل لهم : الصحابة . ولما أدرك أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا ذلك اشرف سمة ، ثم قيل لمن بعده عناية بأمر الدين « الزهاد والعباد » ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، المحافظون قلوبهم عن طوارق انغفلة باسم «التصوف» واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الاكابر قبل المائتين من الهجرة ، انتهى كلام القشيري .

ونحن لا نستبعد ان يكون لاحداث السياسية التي طمت دواهيها في اواخر العصر الاول والعصر الثاني ، وكذلك الاحداث الاجتماعية التي حولت المجتمع الاسلامي عن وجهته الاولى في الجرى مع طبيعة الدعوة الإسلامية على منهاج الفطرة - الانسانية بعيدة عن التفلسف والتعقيدات الفكرية - اثر كبير في تلقيب الفرق وتسمياتها ، واختصاص طائفة معينة من المسلمين بهذه التسمية «التصوف» .

وقد كانت السمة الغالبة على هذه الطائفة التي تميزت بها على غيرها من الطوائف في عتوانها الظاهر هي « احزن » لشعورها بظلم فادح ، واضطهاد جارح ، ومطاردة قاهرة ، فزهدت في رغائب الدنيا وزخارفها ، وسائر مظاهرها ، واعتزلت الحياة ، واستوحشت من محافلها ، وانست الى محاريب الخلوات متعبدة زاهدة ، متقشفة أشد التقشف فرأوا الى الله تعالى بدينها .

واذا افصح هذا - وهو عندنا صحيح - كانت بقية السلف من آل البيت النبوي وأنصارهم من ذوى الأنساب الراسخين في العلم والأدب الشرعى من أهل الصفاء والاخلاص والطهر والتقوى هم الطليعة لهؤلاء الزهاد العباد ، وتبعهم في سمتهم من كان صفوه الى طريقتهم في الزهد والعبادة ، ثم انشعبت هذه الطليعة الى شعب متعددة ، وافتترقت فرقا مختلفة ، اتسمت كل فرقة منها بسمة نزعته بها الى وصف خاص مميز به تسمت وبلقبه عرفت ، يصمها كلها التقشف والزهادة في ترف الدنيا ، وبقي اسم « التصوف » لحيزهم طائفة ، وامثلهم فرقة ، وهم الذين أقاموا على غموض الاسلام ، متمسكين بطواهر شرائعه عاملين ببواطن حكمها وأسرارها ، وعنوانهم الاكبر حب آل البيت حبا لا يخرج بهم عن جادة الحق والهدى ، وكانوا بذلك هم خلاصة الفرقة الناجية الذين عرفوا في تاريخ الاسلام بأهل السنة .

وقد كان اول الفرق الإسلامية قبل التشعبات المتكثرة بآثاره

السياسة من هذه الطليعة الزاهدة المتعبدية ، ففي المعتزلة الاوائل عمرو ابن عبيد ، كان لا نظير له يساميه في الزهد والتجافي عن الدنيا ، وكان في اوائل الخوارج أبو حمزة الشاري وهو نسيج وحده في التعمد وقهر النفس .

فلم غمرت السياسة المجتمع الاسلامي وساقته بعضاها انزلت الفرق الى مزالق اندنيا ، ولم يبق على عهد الزهادة سمة عامة ، سوى عباد اهل السنة وشيعة آل البيت ، وسوى الخوارج ممن فارق الطليعة في بعض الاصول أو الفروع .

فاما الخوارج فقد لزمهم اسم الخروج من انطليعة وكانوا طليعتها زهدا أو تعبدًا وتجافيا عن الدنيا ، لانهم جهلوا سنة الله في شرائع ، فبروا بدينهم من الله جهالة على الله ، وتعاليا بالزهد والتعبد ، وقد انبأنا بخبرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث راندهم وقائد ضلالتهم ذي الشدية اتدى جهل على نبوة الرسالة الخالدة الخاتمة غرورا بتعمق التعبد ، كانوا يتاجر الله مديانا بعبادته ، فيدل بها ادلال الجفافة المغرورين بالله ، المارقين من السدين من باب « خضراء الدمن » مروق السهم من الرمية . وهم لا يشعرون .

ولما توافقت مواكب الامم بميراثها من العقائد والآراء الناشئة في وثنيات الماضي انسحق على ساحة الاسلام بعد ذبوع الدعوة الاسلامية لتدخل فيه طائفة راغية أو كارهة كائنة وجدت هذه المواكب انديخله نفسها بين المجتمع الاسلامي في لجة من البشر تموج بأجناس الانسانية وعقائدها وأخلاقها وعاداتها ، وهي تتدافع وتتزاحم وتتوالب ، يسوقها - أحيانا - ميراث العقائد المترسب في حنايا مشاعرهما ، وتسوقها - في أحيان أخرى - السياسة الظالمة الى مطامعها متسترة يجلباب الدين .

وإذا بالضعفاء أهل المسكنة يدفعون بالمناكب الى الوراء لا يستطيعون دفاعا ولا مواكبة وينظرون حولهم فإذا بأخوة لهم عاكفون على أحلاس الأحزان ، يروضهم حال الامة وهي تهوى مع السياسة المترفة ومسح ميراث الاباطيل في العقائد الوثنية ، فلا يملكون الا الانطواء على أنفسهم يتنفسون زفيرًا ، قنعوا من الدنيا بالكفاف أو بما هو دون الكفاف ، وفرغوا أنفسهم أو فرغتهم الحياة لانفسهم فاستراحوا وأراحوا ، لانهم وزنوا الدنيا التي فرت منهم أو فروا منها بميزان الحق ، فراوها كظل شجرة لا يزال يتنقل ثم يمحي ، فعرفوا ان طالب الدنيا فاقدها ، فاعرضوا عنها بقلوبهم أعراض العليم بتحقيقتها الذي يراها مسح أهلها كصيدة الفئران المزودة يطعم شهى ، ان ادركت الدنيا أحسنًا منهم أو ادركها أعرض عنها ، فان تملقت به أخذها فقال بها حكنا وهكنا في

سبيل الخير ، يسمعه بها المحرومين ، ويرحم بها المعجزين ، وان لم تدركه ولا هو أدركها في سيره الى الله ثم يبتغ نفسه تأسفا على فواتها ، يل لا يمد اليها نظره ليعرف أين مراحها ومغداها أولئك هم الصالحون اهل الصفاء والاخلاص والتقى ، أنسوا بالله فافاض عليهم من بحار لطفه وأردات الاشراق ، وانفتحت لهم من ينابيع العبودية عيون المعرفة فكانوا شهودا لجلال الله وكبريائه ، وهم عن دنيا اناس والاشقياء غائبون .

يقول أبو سعيد الخراز في كتابه « الصديق » : الزاهد في الدنيا حقا لا ينم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح بها اذا أقبلته ، ولا يحزن عليها اذا أدبرت . ويقول النوري نعت الصوفى السكون عند العدم والايقار عند الوجود .

اما الذين تزهنوا عجزا عن التزامهم على الدنيا ، وتعبوا يامسا من نيلها فأولئك الذين بختهم الدنيا لانهم وزنوها بميزان عجزهم ، فقعوا بزيادها اليأس ، وتعب العجز ، وفرغوا أنفسهم عن تطلباها فأراحوا ولم يستريحوا وشغلت قلوبهم بوردات كلمع البرق في أديم السراب ، لا تستقر ولا تنحسر ، تخلخل عليهم النور بالظلام كعبث مرده - الشياطين في أودية الخراب ، لا يدرون مامعهم شيء ان كان معهم من الاشياء شيء ولا يزالون يسبحون في بحار السراب حتى تتخطفهم شياطين الاباطيل ، وتقذف بهم في أودية الضلال فهم مرة حلوليون ، وأخرى اتحاديون ، وثالثة إباحيون ، يعبدون ما ينحتون بأصابع الاضـاليل ، ويدعون ما يمتثلون بأخيلة المرورين ، وينطقون بما يخليلون من شطحات المبرسمين

والزهد انصاف في الدنيا بعروق القلب عنها مع القيام بحق شرائع الله تعالى مخلصا له الدين هو الميزان الصادق في شرعة الاسلام لوذن « التصوف » انصاف ، بل هو كل ما كان معروفا في صدر الاسلام من عمل زوى تحت مسمى فـا بـعا (تصوفا) صادقا ، وهو ما كان يعرف بالمعرفة ، لا ، العارف بالله لا يشغله عن الله شيء لاطلب الدنيا ولا الهرب منها ، يقول يوسف بن علي في رواية السلمي (١) ، لا يكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله تز وجل طريقة عين .

ويقول أبو عمر الانطاكي سمعت رجلا يقول للجنيد : من اهل المعرفة انزام بقولهم : ان ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : هذا قول قوم تكلموا باسقاط الاعمال ، وهو عندى عظيم ، والذي :

يسرق، ويزني أحسن حالا. من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا
الإعمال عن الله تعالى وإلى الله تعالى رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم
اتقص من أعمال البرذرة (١)

والاصل فى ذلك حديث حارثة • وهو مروي من طريق صحيح قال
النبي صلى الله عليه وسلم لحارثة : (كيف أصبحت يا حارثة) ؟
قال : مؤمنا حقا يا رسول الله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :
(وما حقيقة إيمانك ؟) •

قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأطعمت لذلك نهارى وأسهرت ليلى .
وكاننى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكاننى أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ،
 وإلى أهل النار يتعاونون فقسال النبي صلى الله عليه وسلم : (مؤمن
حقا نور الله قلبه عرفته فالزم) •

ويقول أبو سعيد الخراز فى كتاب « الصلوق » : وأعلى درجات الذين
زهدوا فى الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، وكانوا عبيدا .
عقلاء عن الله عز وجل ، أكياسا محبين ، سمعوا الله جل ذكره نعم الدنيا
ووضع من قدرها ولم يرضها دارا لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل
أن يراهم راكنين إلى شيء ذمه ولم يرضه وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضا
لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته كرما ،
والله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

ويروى أبو سعيد، فى معنى حديث حارثة عن عمر بن عبد العزيز
أنه نظر إلى شاب مصفر ، فقال : « ما هذا الصغار يا غلام ؟ قال : اسقام
وأمرأى ! قال : لتخبرنى !

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عتدى
ذهبهى وحجرها وكاننى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتزادون ، وأهل
النار فى النار يتعاونون •

فقال له عمر بن عبد العزيز : أنى لك هذا يا غلام ؟

قال الغلام : اتقى الله يفرغ عليك العلم افراغا •

وقد أورد أبو سعيد رضى الله عنه فى كتابه اشتمالا يورده أهل
البطالة والركون إلى الدنيا والاستغراق فى حبها وجمعها ، وأجاب أحسن .

(١) الرسالة التثبية .

احابة ، وتلخيص ما قاله : فكيف ملك الانبياء عليهم السلام الامنوال
والضياح ؟؟ والصالحون من بعدهم ؟؟

نقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير .

اعلم ان الانبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضى الله
عنهم امانة الله تعالى فى ارضه على دينه ، وعلى امره ونهيه ، وفهموا لماذا
خلقهم ؟؟ فوافقوه فى محبته ؟؟ ثم وقفوا عند ذلك موافق العبيد
الالباء عن القابلين عن الله والحافظين لوصيته ؟؟؟ فسمعوا الله تعالى
يقول : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ؟؟؟
وقال : (لله ما فى السموات وما فى الارض) فايقن القوم انهم وانفسهم لله
تعالى ، وكذلك ما خولهم وملكهم فانما هو له ، خير انهم فى دار اختيار
ولموى ؟؟؟

فمن ملك من اهل الملح عن الله تعالى واحد احسن شيئا من الدنيا
فهو معتد ان الشئ لله عز وجل لا له ، الا هو من طريق حق ما خوله
الله تعالى وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه ؟؟؟

فانقوم كانوا خارجين من ملكهم فى ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته
غير ساكنين الى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقدوه ان فقدوه ، ولا يشحون
بالشئ ولا يحتاجون الى العلاج والمجاهدة فى اخراجه ، ؟؟؟ وهذا النبى
صلى الله عليه وسلم ياتيه ملك من السماء لم ينزل قط قبل ذلك فيقول
له : هذه مغاتيح خزائن الارض تسير معك ذهباً وفضة ؟؟ فلم يختر النبى
صلى الله عليه وسلم وقال أجور مرة وأشبع مرة .

وهذا أبو بكر - حين حث النبى صلى الله عليه وسلم على الصدقة -
جاء بما له كله ، لانه كان اقوى القوم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :
(ما خلفت لعيالك ؟) قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد . ثم جاء
عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :
ما خلفت لعيالك ؟ قال : نصف مالى ، والله عندي مزيد .

قالت : فانظر الى قول الصديق الاكبر وهو فى مقام الجمع بين
انفناء عن نفسه وماله ، والبقاء بالنسبة لصدق رجائه فى الله تعالى :
(لى عند الله مزيد) فهو مشغول بالله غنى بما عند الله . ثم انظر الى
قول الفاروق وهو فى مقام الصديق مع الله : (والله عندي مزيد) والفرق
بين الشبهين هو فرق ما بين المقامين .

قال أبو سعيد : ثم عثمان ، يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج
اليه ويحدث بشر رومه .
افلا ترى ان انقوم انما كانوا معدين الشئ لله تعالى ؟؟ ؟؟؟ وهذا

أبو بكر رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها لم يرفع بها رأساً . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها كن طمأنه الحزين والزيت ، وكانه فى ثوبه يضع عشرة رقعته بعضها من آدم وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقبصر ، وهذا عثمان رضى الله عنه كان كأنه واحد من عبيده فى اللباس والزى . ولقد روى عنه أنه روى خارجاً من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب فقيل له فى ذلك ؟ فقال : أردت أن أنظر نفسى هل تأبى ؟

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الخلافة قد اشترى أزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول فتقدم الى خراز فأخذ الشفرة فقطع الكم من عند أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمينه ويسرة .

وهذا الزبير رضى الله عنه يخلف حين مات من الدين مائتى ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل ، وهذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يعطى حتى أهله لمن سألته .

فهذا يدل على أن القوم كانوا كما قال الله تعالى حين أمرهم فقال (انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

هذا التصوير الذى صورنا به الجو العام فى سيرة المسلمين الاولين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من زهاد الصمد الاول ومتبعيهم من العزوف عن الدنيا والصدق مع الله فى معرفة جلال كبريائه ، والقيام بحق شكره بالتعب له فى سائر حركاتهم وسكناتهم على قدم الاخلاص ، والذى صورنا به زهادة اليائسين وتعب العاجزين عن المنافسة على الدنيا وتسلط شياطين الاهواء على عقولهم وأفئدتهم حتى أخرجتهم الى وثنيات مظلمة زعموها فتوحات مشرقة هو - فى نظرنا - واقع ما يصح أن يطلق عليه اسم « التصوف فى تاريخ الاسلام » ، لأن اللون الاول منه وهو لون الزهادة الصادقة والتعب الحاصل ، واليقين المصطفى من حظوظ النفس هو الذى يعرفه دين الاسلام وتعرفه شرائعه ، أما اللون الثانى وهو لون الزهادة اليائسة والتعب القاتم فهو اللون الوافد من خارج الاسلام مع العقائد الوثنية التى حملتها طوائف الزاحفين الى ساحة الاسلام بقلوب مليئة بالباطيل ، وهذا كله تعرفه طبيعة الاسلام ، ولا تفرقه ولا ترضاه مهما تأول المتأولون .

فالتصوف فى صدر الاسلام - على غربة هذا اللفظ عن الاسلام واللغة العربية - كان عملاً محضاً ، يقوم على الخلاص والتعب لله تعالى فى كل امر من أمور الدين والدنيا ، وهذه الدنيا عندهم دين ، لانهم

يأتون ، يأتون ، منها وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون ، لا يسارعون
الا الى الخيرات وهم لها سابقون ، ويقوم على الشفقة على خلق الله والرحمة
لهم ، يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم انه امرأة بغية رحمت
كلها وجدته يلهث من شدة العطش ، فشقت خيارها لترفع له ماء من
البئر فسقته فطلع الله عليها فغفر لها ، ويسمعون منه صلى الله عليه
وسلم انه امرأة دخلت النار في هرة ، حبستها فلم تطعمها ولم تتركها
تأكل من خشش الارض .

ويرونه صلى الله عليه وسلم يحلم على اعرابي جاءه يساله شيئا من
متاع الدنيا فينلظ الاعرابي القول للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيهم
بعض الصحابة ليطش به ، واذا بالنبي صلى الله عليه وسلم ينهه
صاحبه ذا العزيمة الباطشة ثم يقوم صلى الله عليه وسلم الى بيته ويزين
في الاحسان الى الاعرابي حتى يبدل غلظته ليئا ولطفا ، وجفوته مسحة
ودعة ، ثم يقول له : ارضيت ؟ فيقول الاعرابي : نعم رضيت ، فجزاك
الله من اخ وعشرة خيرا ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم : انك
فلت ما قلت ، وفي نفس اصحابي عليك شيء ، فاخرج اليهم ، وقل
امامهم ما تقول ، ويخرج الاعرابي راضيا ، ويعرف هذا الرضا في وجهه
اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسكن نفوسهم ، ويرشدتهم
النبي صلى الله عليه وسلم الى ثمرة التربية العملية للنفوس البشرية ،
فيقول لهم : لو تركتكم وما كنتم تريدون به لنحل النار .

فهذا درس عمل ، قل فيه الكلام وكثر فيه العمل ، وكان حديث
القلوب فيها ابلغ من براءة الالسننة ، حيث ملاها راحة وسماحة
وغرس فيها حب الجود والبذل وزيتها بالحلم ، وجمع لها مكارم الاخلاق .

درس يجعل النفس الانسانية مرآة صادقة لتلقى صورة الخير
والبر والشفقة على عباد الله ، لانهم عباد الله .

درس يتعلم منه حاضروه في مدرسة النية والذين يسمعون
بآذان قلوبهم ممن يقتفى آثارهم كيف يقوى على دوافع بشرية ، ويرتفع
فوق مستوى دواعي غرائزه ، فيحاسب نفسه على الخطرات والهواجس
وفلتات الكلمات ، فضلا عن كبير الاعمال ، وعظيم الاقوال ؛ وذلك ان
محاسبة النفس هي الدھامة الاولى في بناء الاخلاص ، والاخلاص لباب
المبودية ، والمبودية هي الباب الى حضرة القدس والشهود ، بقول ابن
سعيد الجمن البصري : ان المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله عز وجل ،
ومن دقيق المحاسبة للنفس فيما يبدو أمرا صغيرا عنه ، الذين لا يلاحظون
انفسهم لله تعالى ، وكبيرا عظيما عند من ادعوا بآلتقى وذل المبودية
ما رواه المحاسب في « الرعاية » من طريق أبي داود الطيالسي عن عبد

العزيز الماجشون عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها : انه ابا بكر رضى الله عنه قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب الى من عمر ، ثم قال لها : كيف قلت ؟ قالت : قلت : ما أحد من الناس أحب الى من عمر ، فقال : لا ؛ ما أحد من الناس أعز على من عمر . قال المحاسبى : فتدبر كلمة قالها ، ثم أبدلها بكلمة غيرها .

وبهذه المحاسبة للنفس يكون وقوفها ابدا على قدم الاخلاص لله فى العبودية فتظهر من أدران الرذائل الحيوانية ، وتصفو من كدورات الظلمات المادية ، وتتححر من رق الشهوات والرغائب ، وتخلص من قيود الانانيه

منطلقة فى بقائها الانسنى الكامل الى آفاق الاشراق الروحى ، وتخضع لها جوارح الجسم طواعية منسجمة مع توجهات القلب بكلية الى الله تعالى انسجاما يستوى فيه ظاهر الانسان وباطنه فى سائر حركاته ، فيحببه الله حبا يسخره به لمرضائه ، فلا يراه الا حيث يحب ويرضى ، ويحب العبد الله حبا لا يرى معه فى الوجود غيره ، واذا أحب الله تعالى عبدا كان له سمعا يسمع به وبصره يبصر به ، ويذا يبطش بها ، وذلك نهاية ما يطلبه العارفون ، وهو الذى يدندن حوله العابدون السائحون ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

أولئك هم الادلاء على الله لا يرجون أجرا فى مصيبة الله ، ولا يقنطون أحدا من رحمته يرضون ابدا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضى بالنقص ، والشكر على النعماء ؛ يحبون الله تعالى الى العباد ، بذكرهم اينديبة واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى التبداع والاهواء ، تاركين التعمق والاغلاء ، مبغضين للجسدال والمرء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والاذى ، مخالفين لاهوائهم ، محاسبين لانفسهم ، ، ولكن لجوارحهم ورعين فى مطاعهم وملابسهم وجميع أحوالهم مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجنزين بالبلغة من الاقوات ، متقلبين من المباح ؛ زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحسب ، وجابن من المعاد ، مبغضين لبيتهم ، مؤثرين على انفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه ، علماء بامر الآخرة وأهويل القيامة ، وجزيل انثواب وأليم العقاب .

ذلك أورثهم ، الحزن الدائم ، والهلم المضنى ، فشفخوا عن سرور الدنيا وتبعيها (١) .

على هذا الصراط كان اثبة الهدى من اعلام مدرسة النبوة المحمدية وأنبايعهم الذين لم تشوش البدع الضالة عقائدهم ، ولم تدنس الاهواء والشهوات أعمالهم .

(١) من كلام الخازن ، الحاشى لقلته من مائدة عتبات الرعاية التى كتبهها وإحجام الاستاذان الفضائل عبد زهير محمود ، وطه عبد الباقي سرور

مضوا طاهرين مطهرين على السميت الاقوم ، والنهج الاعدل الاحكم
 لهم تلمهم الدنيا عن سبيل العبودية لله ، مخلصين له الدين ، ولم يميلوا
 معها اعتزاز بزخارفها ، تركوها بشهواتها ولذاتها بجسومهم وارواحهم
 في غير رضا الله ، واقبلوا عليها يجدها وشظفها بقلوبهم وعقولهم في رضا
 الله ، واتخذوها ملتتهم الى ساحة الاقبال على الله ، عقلوا عن الله بقضله
 اوامره ، وفقروا بتوفيقه نواصيه ، جعلوا الامر والنهي سباج اعمالهم ،
 بهما يتحركون ويسكنون ، لا يراهم الله حيث نهاهم ، ولا يفقدهم حيث
 امرهم ، علماء بالله يخوضون بحار العلوم والمعرفة تنفقا في دين الله ،
 واستطلاعا لجلال الله في سنائمه ، يجاهدون أعداء الله ليردوهم الى حظيرة
 حبه ، شفقة عليهم من سخط الله وغضبه ، ورحمة بهم ان ينانهم اليهم عقابه
 يسكنون تحت وطأة الاقدار رضا بقضاء الله ، يقومون في حركاتهم بنعمة
 الله ، ويقعدون في خلواتهم لذكر الله ، قلوبهم معلقة بوشائج الرجاء
 في رحمة الله ، وانخساسة من مكر الله ، يخافون ربهم من فوقهم ، فلا تطمئن
 انفسهم الى عمل من الاعمال ، يظلمون نهارهم ويسهرون ليلهم ، توابين
 اوابين ، قواحين بالقسط ، شهداء الله على انفسهم بالنقصور والتقصير
 لئى جنب الله ، يسمعون كلام الله ، وهم يبكون شوقا الى ما طالعوا من
 غيب الله فيما أعده من جزاء الرضا والرضوان لاحبابه وأوليائه ، وترتد
 مفاصلمهم فرقا من سخط الله ، تفيض أعينهم بالدمع حزنا الا يجدوا
 ما ينفقون في سبيل الله ، عكوف في مجالسهم على محبة الله ، مصفرة
 وجوههم ، نحيلة اجسامهم ، يابسة جلودهم ، يراهم الجاهل بالله عن
 غفلة منهم فيظنهم في سياق الموت من خشية الله ، لا يطفى نور يقينهم
 نور علمهم مرهقة اسماعهم الى نداء الحق فاذا سمعوه انتفضوا كأنهم
 ارواح منطقة من سجنها ، يحسبهم الغافل عن حقيقتهم اذا رآهم في
 انتفاضهم جنة تتوالت في ملاعبها ، اذا استنفروا جهادا لاعلاء كلمه
 الحق ، نفروا باذلين انفسهم لله كأنهم أسد انسى تدفع عن عرنها ،
 وتذود عن اشبابها ، أشجع الناس قلبا ، وأسخاهم لله نفسا ، فرحين
 بنداء ربهم ، يقتلون ويقتلون ايقانا بوعده الله ، مستبشرين بجهنم وفوا
 بعهد الله ، تدور وجوههم اشراقا اذا استشهدوا في حب الله كالقمر
 في تمامه ، يشرق في سما صافية الاديم ، يقينهم فخصن بالعلم ،
 وعلمهم معتمد على اليقين ، ايمانهم شهود ، ومنتهى معرفتهم بالله هو
 عجزهم عن الوصول الى حقيقة رواء آيات الله ، يقول الصديق الأكبر
 في تصوير نهاية المعارف (العجز عن درك الإدراك إدراك) انتزاعيا
 من فيض اشراق النبوة في أدب العبودية (لا تحصى ثناء عليك ، أنت
 كما اثنيت على نفسك)

وتفسير : ان ارقى مقامات القرب هو مقام العبودية ، وهو

خصيصة الانبياء في اضافة التخصيص جملة ، لسائر الانبياء ..
وتقصيلا مميزا لاولي العزم من الرسل ، ومنتهى مقام العبودية هو
حجاب الادب الذي لا يهتك ستره بالتطلع الى سبحات الجلال الا مطرود
محروم .

وبهذا الادب الاشم الاعظم اثنى الله تعالى على حبيبه سيد الانبياء
والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بعد الثناء عليه بتخصيصه باضافه
العبودية بعد الثناء على نفسه بتسبيح ذاته وتقديس صفاته في قوله
(سبحان الذي اسرى بعبده) وكان لذلك الثناء الاشم في مقام (قسايد
قوسين أو ادنى) بقوله عزشانه (مازال البصر وما طفي) .

ومن ثم كان ابو بكر انصديق رضى الله عنه هو انصديق الاكبر ،
والتلميذ الاول لامام المقربين وسيد العابدين ، لان الله تعالى جمع له ماتفرق
من معاني العبودية واسرار القرب في سير العارفين العابدين المقربين
من خاصة المؤمنين ، فهو المثل الاعلى لهم في حياته واعماله ، وسره واعلانه ،
كما جمع الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ماتفرق
من نعوت العبودية الخاصة في جميع الانبياء والمرسلين .

ويتفاوتون حظ العابدين في ادب العبودية ومراتبها بتفاوت درجات
القرب من منبع الفيض في العلم بالله تعالى ، ولما كان ابو بكر رضى الله
عنه اقربهم الى سيدهم صلى الله عليه وسلم كان حظه منها اغشاه النور
يقف دون ادراكها كل عابد من خاصة المؤمنين .

وتأتى بعد ذلك درجات الصحابة اجمعين متتابعة تتابع مراتبهم
من القرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ناله كل واحد منهم من
نصيب في العلم بالله تعالى ، وليس احد منهم رضى الله عنهم الا وله من
ذلك حظ يفوق حظ كل رضى الله جاء بعدهم لاختصاصهم باشراف ارواحهم
برشحات انوار النبوة ، واعظمهم في نفحات القرب الراشدون على مراتبهم
في الخلافة ، وهى اجل مراتب الولاية والعبودية .

ولهذا كانت سيرتهم في مجال حياتهم ومسائر اعمالهم ، وكافة
حركاتهم ومسكناتهم فيما يأتون ويذرون هى الميزان لوزن حقيقة «التصوف»
الذى يعرفه الاسلام - بحقيقته العملية التى تمثلت في الزهد والوجد
والورع الصادق ، والتعبد الكامل ، والاخلاص الباعث على البر والاحسان
لكافة الخلق ، لانهم عيال الله ، واحبهم اليه اكثرهم نفعا لعياله .

وسيرة الصحابة رضى الله عنهم وخاصة الراشدين مدد من سيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم المعبر الى اشراف انواره من اراد
المبود الى منازل القرب ، والطرق كلها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

مسبوذة الا طريق اصحابه الناقلين الى الناس سيرته بسمتهم واعمالهم
كما ان الطرق كلها الى الله تعالى مسبوذة الا طريق رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى سيرته وسمته وسائر احواله وافعاله واقواله .

فالتصوف الذى يعرفه الاسلام عمل تطبيقى فى واقع الحياة لسيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة خاصة اصحابه ، وقد اخذ عنهم
يحقيقته - لا باسمه ولفظه - العابدون من تلاميذهم اهل المعرفة والعلم بالله
ثم تلقاه مثلاً حية من العمل فى سيرة هؤلاء تلاميذهم الذين جاءوا من
بعدهم من اهل التقى واليقين ، وكان هؤلاء اولئك على نهج استاذهم
ومرييهم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون كثيراً ، ولا
يتكلمون الا قليلاً ، فلم يعرفوا للتصوف علماً خاصاً يميزه عن علمهم بالكتائب
والسنة ، ولم يعرفوا له نظاماً خاصاً يميزه عن نظامهم فى حياتهم
وسيرتهم التى عليها درجوا بين صفوف اصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ولم يعرفوا له طائفة خاصة تمتاز باوصاف الا توجد فى كافة
صالحى المؤمنين ، يكره احدهم ان يتكثر بالناس يتبعونه ، ويمشون خلفه
خشية العجب على نفسه ، روى ان محمد بن سيرين كان اذا خرج الى
مكان يقصده وأراد بعض اصحابه ومريديه ان يصحبه يقول له : ان لم
يكن لك حاجة فارجع .

ويكره احدهم الا يجد السعى فى الحصول على قوته وقوت عياله
بل فى الحصول على أكثر من ذلك صيانة لدينه وصلة نرحمه ، روى ان
سعيد بن المسيب كان يقول : لآخرة فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها
دينه وجسمه ، ويصل بها رحمه وكان رضى الله عنه يتجر فى الزيت ،
ولا يقبل صلوات الخلفاء والولاة .

ويكره احدهم ان يتميز على سائر المسلمين فى زيه وشكله ومكانه
فى مجلسه ، ويكره احدهم ان يرى قعيد المساجد وغيره يسعى عليه يقوته
ويمونه لا يدري من اين جاءه هذا اتقوت ، يقول ابراهيم بن ادهم : (اطلب
مطعمك ولا عليك ان تقوم الليل ولا تصوم النهار) وابن ادهم هذا كان
من ابناء الملوكة ، لاحظته عيون العناية الإلهية ، فخرج عن ملك الدنيا الى
الله تعالى يطلبه فى عز طاعته ، وكان يأكل من كسب يده ، يعمل للناس فى
الحصاد ، ويضرب لهم اللبن من الطين ، ويحرس البساتين .

وكانوا يكرهون التماوت فى الحركات تظاهراً بالتقى ، وانما كانوا
يحيون حياة الناس ، بكل ما فيها من جد وقوة فى صالح العمل ، يرى
احدهم ان خدمة فرسه الذى اعلمه للجهد فى سبيل الله ومسح أعرافه من
أجل انواع العبادة ، وكانوا يرون السعى على أراذل المسلمين وخدمته
يتامهم وضمفاهم تحثاً وتقى ، يأملون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ،

ويجهرون بكلمة الحق في وجه الظلمة ، لا يبالون اكان الموت يسبقها
لشيء ام هي تسبقه فتصعد قلوبهم ، لا يرون اينما على باب امير او ذى
سلطان ، فإذا اضطروا الى شيء من ذلك نصحوا الله ورسوله ، يردون
هداياهم ولا يقبلون شيئا من أموالهم .

وكان فيهم الآمام العادل ، والخليفة الراشد والفائد الشجاع والعالم
الرباني ، والصانع الماهر ، والتاجر الصلوق ، والزارع المحسن ، فهبط
في الامة روحها الذي تحيا به ، وعقلها المدبر ، وقلوبها النابض باشر
وتسودرتا الحساس ، يستسقى الغمام بدعائهم ، ويستجلب النصر على
الاعداء بأسياهم وبركاتهم ، يفلون عند المنعم تغفا ، ويكثرون عند سماع
الهيمة نجدة وشجاعة ، نفوسهم راضية ، واخلاقهم مرضية ، لا يحدثون
الداس بما لا يفهمون ولا يفتنونهم بأقوال لا تبلغها عقولهم ، ولا تصل اليها
مداوكلهم ، ينطقون بالحكمة ويدعون الى الله بالموعظة الحسنة .

هم الرعيل الاول من صفة المؤمنين في عهد صفاء الدين ، وطهارة
اليقين ، وبقاء الشريعة من غلس الفلسفات الوافدة ، تحمل في طياتها
العقائد النابتة في منابت التوثنيات الفلسفة محمولة على مراكب ذوى
السلطان ، وركائب السياسة التى تبطنها طوائف الطامعين الظالمين ،
فخاطوا قضايها بقضايا الدين ، وحاطوا هذا الخليط المتنافر بمنطق
دخيل براق استهوى بعض العقول ، فركنت الى مقاييسه ، تقيس بها
أمر العلم والمعرفة ومحصل الافكار ، محاولة ان نخضع لمعاييرها سنن
الله فى شرائعه التى لا يستقل العقل الانسانى بمدركاتنا ، بل يعجز
هذا العقل فى بعضها عن أصل ادراكها .

ومن هنا انشعب التفكير الاسلامى :

اولا - الى تفكير عقلى افتتن بالعقل وعظمه جدا حتى كاد يؤلهه .
وسلمه مقادته ، وحكمه فى النصوص التوجيهية يتأولها اذا لم يطق فهمها
ووضعوا لذلك قاعدة ادخلوها على اصول الدين فأصبحت قاعدة من قواعد:
اذا تعارض النص والعقل وجب اتباع العقل وتأويل النص . ولا ندري
كيف قبل مفكرو المسلمين من الاخراج أهل الديانة والمعرفة بالله وشرائعه
هذه النقائذ على اطلاقها ولماذا لم يضعوا فى مقابليها : اذا تعارض النص
انقطع مع العقل وجب تمجيز العقل ، لان النص القطعى الهى قد يعجز
العقل عن ادراك حقيقته انيوم وتكشف له غدا ، والعقل مهما بلغ من القوة
فهو محدود الغاية فى التفكير قاصر باعتباره عن ادراك كثير من الحقائق
التي يعترف بوجودها ولا يدري - حقيقتها .

يمثل هذا الفريق من ذوى الفكرة العقلية جند طوائف المنسزلة
والمفلسة فالعقل عند هؤلاء مصوم من الخطأ ، مطلق العنان لا يقف

عند جد في التفكير والحكم ، وهذا غلو مفرط كان له خطره في معركة التفكير الاسلامي ، ولا يزال هذا الخطر قائما في افكار المجريين المعاصرين .

ثانيا - الى تفكير نصي يلتزم حرفية النصوص ، ولا يفسرها الا بالفاظها ، ويمثل هذا الفريق بعض المحدثين والفقهاء ، وهؤلاء كانوا قائلوا غلو العقليين يقلو مثله ، يقف منه على طرف الجانب الآخر ، فاعطوا العقل حقه ، لان الله تعالى جعل العقل مناط التكليف ، فلا تكليف اد بعقل والتكليف لا يتم الا بفهم التكليف ولم يجعل الله تعالى للاستنتاج وسيلة لفهم شرائعه التي كلفها عباده سوى ما منحهم من عقل ، ووظيفة للعقل - منها ادراكها - جملة في اصولها كلها وادراكها تفصيلا في الكثير من جزئياتها ، وقد يقف في ادراك القليل منها مسلما لها ، او مترصا الفتح بفهمها .

وهؤلاء يتفاوتون في استمسكهم بالنصية الحرفية ، فبعضهم بغاى جدا فلا يبيع لعقله ادنى حركة نحو فهم النص على غير ظاهره ، مهما كان هذا الظاهر ، ومن هؤلاء طوائف المتشبهة والجسمة وهم اخبار المذكرين ، وبعضهم يبيع لعقله ان يجوس خلال النصوص في اناة وحذر ، يتناول منها ما يخالف الاصول المتفق عليها والتي قد اوضحتها اصول اخرى جاء فيها صريحة ، ومن هؤلاء بعض الحنابلة وسائر الظاهرية .

ثالثا - الى تفكير لا يبخس العقل حقه من الادراك ، ويطلق له العنان في دائرة استطاعته المحدودة ، فهو في نظر هؤلاء قاصر عن الاستقلال بادراك كثير من امور الدين الاصولية والفريقية ولكنه قادر على فهمها اذا جاءت تكليفا .

ويمثل هؤلاء متكلموا اهل السنة من الاشاعرة وبعض مفكرى الفقهاء الذين اضطروا الى مجابهة الفرق الاخرى من طوائف المعتزلة وغيرهم في محافل الجدل ليجادلوهم باساليبهم وقوانين منطقهم ، حفظا على عقائد الامة ان تشوشها شبه المتفلسفة وان يفسدها اعتساف التأويل .

وحينئذ رأى اهل العلم بالله من زهاد الامة وعبادها ان تيار الجدل الفيلسفي كاد يجرف الناس ويشغلهم عن اخلاص العمل لله تعالى ، فلا بد من صبيحة قوية منظمة ترد الشاردين عن حطائى المعرفة ، وترشد الحائرين الى الجادة ، وتهدى الضالين الى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الارض ، ورأوا أنهم لا يستطيعون القيام بهذا الواجب الذى يحتمه داعى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر - وهو من اعظم خصائصهم - الا اذا خرجوا الى الناس من محاريبهم ، يدعونهم الى ربهم باسلوب علمي منظم يجمع بين العلم والعمل ، وهذا يتطلب منهم النظر فى نصوص الكتاب والسنة ، نظرا يربط كل نص بموضوعه .

ويضعه تحت عنوانه في بابيه تبييناً لحجته ، تقريباً للعقول والقلوب بما يشبه صنيع الفرق المتجادلة في الزى والشكل ، وإن كان يخالفه في الحقيقة والموضوع ، بعيدين عن ميادين الجدل والمراء .
لذلك أخذ فريق من اعلامهم يضع النصوص مواضعها من حقائقها ،

• منها على معانيها مشيراً الى اسرارها ، مبيناً طريق العمل بها ، شارحاً آثارها ، مستشهداً بمواقف السابقين من صالحى الامة في أشباهها ، تحبيبا للعمل في طاعة الله والاخلاص له واستمالة للقلوب ، لم يخرجوا في كتاباتهم ومؤلفاتهم عن الزهد ، والورع ، والاخلاص ، ومحاسبة النفس بأسلوب بين محكم ، لا نجد لهم كلمة موهمة ، ولا عبارة محيرة ، يكسب كلامهم نور الحق وضياء الهدى .

وكان من حيلة هذا العلم المنظم في الكتب ، المضبوط في المؤلفات ، نقياً خالصاً ، قرآنياً نبوياً أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، وأبو سعيد الخراز ، وأبو طالب المكي ، وأضرابهم من سلف زهاد الامة وعبادها ، وهم وإن اختلفوا روحانية ونفساً وصحبة في التأليف وإيراد النصوص متفقون في الاتجاه والغاية ، ومتسلسلون في الحياة والزمن .

لم تتركهم الفرق المتشعبة من مذاهب المنطقيين العقليين ، والنصيين الحرفيين ، والفقهاء والمتكلمين المعتدلين ، وسائر الفرق الاخرى المنحرفة عن أصول الدين ، يسرون في طريقهم داعين الى الله تعالى مخلصين له الدين ، لا يمارون ولا يجادون ، ولكنهم تناولوهم بأقلامهم وانسنتهم يناقشونهم وينقدون طريقتهم ويعترضون أسلوبهم كأنهم فرقة من الفرق ، وكان سلوكهم مذهبا من مذاهب الفكر الجدلى ، ولم يقصد اهل العلم بالله تعالى من الرعييل الاول مؤلفاتهم أن يكونوا طائفة او فرقة او اصحاب مذهب من المذاهب ، يجادون فيه ، ويناضون عنه ، وإنما كان قصدهم الدعوة الى الله ، وضبط ابواب العلم بالله ، واكتشفه عن حكم فرائضه وتعباداته ، وتحبيبه للناس ، اداء لحق الله في نصيحة عباده .

ولهذا لم تكن لهم مؤلفات في القرن الاول وكانت مؤلفاتهم نادرة جدا في القرن الثانى لا تخرج عن كلمات مجموعة من أقوالهم في مجالس تذكيرهم ، وحلقات وعظه نقلها عنهم مريوهم وتلاميذهم ، ولم تظهر لهم مؤلفات مقصودة الوضع على نهج المؤلفين الا في القرن الثالث الهجرى ، وهو انصر الذى احتدم فيه الجدل بين الفرق ووقعت فيه على اهل العلم بالله المحن الشداد فصبروا عليها وصابروها حتى كشف الله عنهم غمرتها وفى هذا العصر غلا صوت الفلاسفة واهل الاعتزال من مؤلهى العقل على سائر الفرق ، وفيه بناء متكلموا اهل السنة من الذين يجتمعون بين النص والعقل يخوضون معهم بحار الجدل العميق بمنطقهم المتفلسف الذى يهسر

على عامة الامة من أوساط العلماء فمن دونهم فهمه والاعتماد عليه في
تصحيح العقائد والعمل بشرائع الله تعالى .

ويظهر انه كان في طليعة من وطد لهم قواعد التأليف المنظم الشامل
في علوم الزهد والورع والاخلاص واقام لطريقتهم دعائنها ، ووطالهم
سبيله الامام ابو عبد الله الحارث بن اسد المحاسبي وفي كتابه « الرعاية
ما يشهد بذلك فهو اول كتاب جامع لابواب السلوك العملي في اسلوب
علمي على نهج الزاهدين العباد من اهل العلم بالله وكان المحاسبي معاصرا
للإمام احمد بن حنبل ، وكان عليهما بظاهر الشريعة واصول الدين على
قواعد المتكلمين وخبيرا حاذقا بعلوم المعاملات والدلالة على الله وقد رد على
المبتدعة فانكر عليه الإمام احمد فقال له الحارث الرد على المبتدعة فرضي
فقال احمد : نعم ، ولكنك حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها ، فلم يؤمن
ان يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب او ينظر الى
الجواب ولا يفهم حقيقته .

وكن المحاسبي اتجه (بعد ان رأى اهل زمانه مضيعين لرعاية
حقوق الله ، وهو الامر الذي تولى الله تاليه أنبياءه واحبابه ، لانهم رعوا
عهده وحفظوا وصيته) (١) الى علوم المعاملات وحمل لواء الصوفية وكانوا
في عصره قد نظموا عقدهم في طائفة تدعو الى الله بالعلم والعمل ، فانكر
عليه وعلمهم أيضا الامام احمد بن حنبل فلما سمع منهم دون ان يشعروا
استغفر الله من انكاره عليهم ، قال الشعراني في الطبقات (- قيل لاحمد
ابن حنبل رضى الله عنه ان الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج
لها بالآتي والحديث ، فهل لك ان تسمع كلامه من حيث لا يشعر ، فقال :
نعم ، فحضر معه ليلة الى الصباح ، ولم ينكر من احواله ولا من احوال
اصحابه شيئا ، قال الامام احمد : لاني رأيتهم لما اذن بالمغرب تقبلم
فصلي ، ثم حضر الطعام فجعل يحدث اصحابه ، وهو يأكل ، وهذا من
السنة ، فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس اصحابه بين يديه ،
وقال : من اراد منكم أن يسأل عن شيء فليسال ، فمسألوه عن الرياء
والاخلاص وعن مسائل كثيرة فاجاب عنها واستشهد عليه بالآتي -
والحديث ، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ فقرا قبيكوا
وصاحوا وانتحبوا ثم سكنت القاري ، فلما الحارث بدعوات خفاف ، ثم
قام الى الصلاة ، فلما أصبحوا اعترف احمد رضى الله عنه بفضله ، وقال :
كنت اسمع عن الصوفية خلاف هذا ، استغفر الله العظيم . (٢)

وكان ابو سعيد احمد بن عيسى الحراز رضى الله عنه اماما من ائمة

(١) الرعاية للمحاسبي .

(٢) القرائات الكبرى للشعراني .

الزهاد والورع ، أهل المعرفة والعلم بالله تعالى ، وهو معاصر للمعاصم الحاسبي ، فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجري وقد وضع أبو سعيد في بناء الصوفية المنظمة دعامة من دعائم التأليف في علم المعاملة والسلوك . وكتابه (الطريق الى الله • أو كتاب الصديق) على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية ، خلج الله عليه حلية القبول ، نحسب أن قارئه لا يخرج من قراءته إلا على شيء من نور ربه ، وهذا من أثر الإخلاص في العلم ، وهو يدل بقرب شبه من « رعاية » الحاسبي رضى الله عنه على وحدة المسلك في صوغ الحقائق الصوفية ، مقرونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أظهر دلالتها ، ومعها أقوال الصحابة والتابعين كتطبيق واقعي للنصوص ، وهذه كانت سمة « التصوف » في عصر هذين الإمامين •

والحارث الحاسبي ، وأبو سعيد الحراز بثلاث من أصلق الأمثلة في عصرهما على الصوفية المنظمة العالية التي لم تفارق السمات الأقوم من الأدب الشرعي ، والقيام بحقوق الله تعالى على دعائم الشريعة المطهرة ، على الرغم من الصوفية « تطورت » واتخذت لنفسها في القرن الثالث الهجري كيافاً خاصاً له معاملة التي تدل عليه ويعرف بها ، وأصبحت طائفة لها علومها ورسولها ، وسلوكها

يقول الحاسبي في كتابه (الوصايا) ثم اني وجسنت . باجماع الامة في كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله ، وإداء فرائضه ، والورع في حلانه وحرامه ، وجميع حدوده ، والإخلاص لله تعالى بطاعته والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم (١) ويقول أبو سعيد كل باطن يخالف ظاهراً فهو باطل •

وقد تكررت أمثال هذه الكلمات من أكابرهم في هذا القرن الحاشد بهم - مما يدل على أنهم شعروا أن شيئاً بدأ يطرأ على نزعات بعضهم - بفتح باب القول عليهم بتخطي سياج الشريعة الى أمور لا تقرها نصوصها فأراد أئمتهم دفع قالة السوء عن طائفتهم ، وبيان أمرهم مشيد بالكتاب والسنة ، فكل ما يخالفهما فهو باطل ، لا اعتداد به عندهم ولو صدر من يطير في الهواء ويمشي على الماء ، ويطوى له المكان وينشر نه الزمان ، يقول أبو يزيد البسطامي : لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تفتروا به تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة وروى القشيري في الرسالة أن أبا يزيد قال لبعض أصحابه : قم بنا ننظر هذا الرجل الذي قد شهسره نفسه بالولاياء • وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فمضينا إليه ، قلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه •

(١) مقبلة الرعاية للاستاذين : عبد الخليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور •

وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فنبأ الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

ويقول سري السقطي ، التصوف اسم لثلاث معان وهو الذي لا يظفيء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن في علم ينقصه عليه ظاهراً الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك أسرار محارم الله .

ويقول أبو حمزة البغدادي : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله .

ويقول أبو القاسم القشيري في الرسالة بعد أن ترجم لعنه من متقدميهم في علوم المعاملات والزهد والورع ، وأكثر من ذكرهم من رجال القرن الثالث : (هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم في هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طرق الرياضة والديانة ، مقيمين على متابعة السنة ، غير مخلين بشيء من آداب الديانة متفقين على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبين أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتوناً ، هلك في نفسه وأهلك من انشتر به ممن ركن إلى إبائيله .

ومن العجيب أن بعض هؤلاء الأكابر أصحاب هذه التحذيرات الشرعية هم من الذين نقلت عنهم كلمات يصعب فهمها على مقتضى قوانين الشريعة وأحكامها وإن أبا يزيد - وهو صاحب ذلك الكلام المشرق بأنوار الشريعة المطهرة كان في طليعة من نقل عنه بعض الكلمات الجامعة التي يعسر تأويلها بوجه صحيح ، كما نقل من غيره الفاظ خارجة عن نطاق الأصول الشرعية .

ومخرج ذلك عندنا أحد أمرين ، أولهما - أن ذلك مما حمله عليهم من لم يرج الله فيهم وقارا ، تشويها لسلوكهم وتعويجا لطريقهم حتى ينقطع عنها السالكون . وهذا يتأيد بما صح عنهم من القول الذي نقلنا طرفاً منه في تعظيم الشريعة والتزام حدودها ، والتصريح بأن كل من خرج في قوله أو فعله عن هذه الحدود هالك مفتون ، كما يتأيد أيضاً بأفعالهم التي جعلوا سببها تقوى الله والزهد في مظاهر الدنيا والورع في الخلل فضلاً عن الحرام ، والتزام اتقائهم وكثرة نوافل الخير في آناء الليل وأطراف النهار ، وبعبء جدا أن يكون صاحب هذه السلوك متصنع للناس يظهر خلاف ما يبطن ، وهم من ذلك براء .

ثانيهما - أن القوم أهل رياضة ومجاهدة وتعب ، ومناجاة في

خلواتهم مع الاخلاص الكامل وفناء النفس عن رؤية عمل من اعمالها ، وان
مرد الاعمال عندهم الى توفيق الله ، فهم متعرضون لنفحات الله في سائر
أوقاتهم ، والله على عبادهم المتعرضين لنفحاته فيوضات من الاشراق الروحي
تنزل على قلوب المخلصين ، فاذا فاجأتهم لمعات الاشراق بقوة فيضها ضعفت
تحت أشعتها المرسلة من شمس التجليات الربانية ، قوة بشريتهم وأخذوا
عن حقيقتهم التكليفية واندفعت السننهم تعبر عن مشاهد الاشراق
فعمزت العبارة عن الاداء فكانت منهم تلك الكلمات الجامحة في مقياس
الشريعة والعقل القاصرة في ميزان المشاهدة والمكاشفة .

فعمز بشريتهم عن تحمل مبالغتات الاشراق هو الذي ادى الى قصور
العبارة عن أداء حقيقة المشاهدة وقصور العبارة عن ذلك الاداء هو الذي
لبسها جلباب الجموح عن جادة الاصول الشرعية .
ولعل هذا المعنى هو بيان ما يعتذر به عنهم المعتذرون عن ان ذلك صدر
عنهم في حال سكرهم وغيبتهم عن شهود أنفسهم .

ولهذا لا توجد امثال هذه الكلمات الجامحة عند أهل الصدر الاول
من الصحابة والتابعين ، تمكنهم من منازل الشهود وصحوبهم دائما وقوة
أرواحهم وصفاء بشريتهم بما كسبوه بمشاهدة أنوار النبوة مباشرة
كالصحابة أو بالواسطة القربة كحال التابعين ، كبار اتباعهم .

وهنا نلاحظ ان الذين صبت اليهم تلك الكلمات الجامحة اكثرهم
من سلالات كان لاصونها القربة أو البعيدة نسب واسع في العقائد
الوثنية المفسفة ، كما نلاحظ ان العصر الذي عاشه من نسبت اليهم
تلك الكلمات الجامحة كان عصر تفلسف في العقيدة الإسلامية من جانب
انصارها دفاعا عنها ومن جانب خصومها افسادا لها ، فهل كان لذلك
التفلسف العقيدى في العصر الذي عاشوه أو أصالة النسب في السلالات
الوثنية المفلسة أثر في ذلك ؟ هذا شيء يحتاج الى بحث عميق واستقصاء

بعيد المدى نم يسعفنا وقت هذا البحث بهما ونحن نميل الى تبرئة
الأكابر من أئمة الصوفية في عصرها الاول الذي استقامت فيه معانيها ،
وتميزت فيه بخصائصها ، واحتفظت فيه بصفاتها التي صورها المحاسبى
والخراز في كتابيهما ، ونرى ان كل قول يخالف نصا قطعيا في
الشريعة نسب الى أحدهم هو من باب التقول ، والكذب عليهم .

هكذا مرت الصوفية والتصوف في المرحلة الاولى من الحياة في
تاريخ الاسلام ، ففي القرن الاول نبتت بذرتها على أيدي الزهاد والعباد
وأهل الورع والتقوى الذين أزمضت الفتن الداخلية في الامة الإسلامية
قلوبهم ، فاعتزلوها منطوين على أنفسهم ، يعبدون الله قياماً بفرائضه
مخلصين له الدين ، لا يريدون دنيا الناس ، ولا يزاحمونهم عليها .

ولما انفرط عقد القرن الاول ، ودخل القرن الثاني كانت الصوفية قد قامت على ساقها غضة الاحباب ، لم تستكمل كيانها ، وبدأ اهلها يتحدثون عن المراقبة والاحسان والاخلاص والتقوى ، ومحاسبة النفس ورعايه حقوق الله والصديق في معاملته ، وبدأ الناس يرون فيهم لود جديدا للعمل والجد في العبادة والتجافى عن الدنيا وزخارفها ، حتى أصبح لهم في حياة المسلمين حديث يتحدث به حين حين يشيرون اليهم ، كما أصبح لهم في حياة المسلمين حديث يتحدث الناس به حين يشيرون اليهم كما أصبح لهم كلمات خاصة تتردد في مجالات معارفهم وعلومهم ، عرفت بهم وعرفوا بها ، ونهض جماعة من اهل علومهم ومعارفهم يقيدون أقوال أئمتهم ، ويرصدون كلماتهم الى جانب آى القرآن الكريم وأحاديث انبى صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضى الله عنهم ويجعلونها كالتفسير للقرآن والسنة على أنها من إراداتهم المستنبطة من صفاء باطنهم وقيامهم على العمل بالشرعية المطهرة على قدم المراقبة والاخلاص .

ومن هنا نبع عندهم ما سموه يعلم الباطن ، وهو عند أكابرهم من السابقين ليس الا زينة العمل بالشرعية ، وثمرة المجاهدة فى القيام بأوامر الله ، وبه يفسرون قوله تعالى (واتقوا الله ويُعلمكم الله) والتقوى لا تتحقق الا بالعلم وهو علم الشريعة علمه الله علوما كثيرة أو أفاض عليه معارف لا نهاية لها .

ويعتبر هذا الدور دور حضانة للصوفية والتصوف ، فيه شبت على أقدام أتكوين الطائفي ، وفيه تجمعت لها خصائص هيئت الى أن تبرز فى وجود الحياة الإسلامية طائفة ذات معارف وعلوم ، وذات منطق خاص له عندها أصوله وقواعده .

ولم يكد ينصرم القرن الثاني حتى كانت الصوفية والتصوف طائفة من خلاصة المساجين قائمة بذاتها بين الطوائف الإسلامية ، لها خصائصها ومعالمها التى يستدل بها عليها وميزاتها التى تعرف بها ، ولها أئمتها ومعارفها ، ولها مصطلحاتها فى تلك العلوم والمعارف ، ولها أئمتها وروادها ، ولها حلقاتها الدراسية ، ولها كتبها ومؤلفاتها ولها حياتها الخاصة التى تقوم على رياضة النفس وتهذيبها وتخليصها من عبودية الفرائز ، وتصفيتها من كدورات الأهواء والذائل ، ولها وراء ذلك مجاهداتها فى عبادة الله وذكره ، وتذكير عباده بالآله ونعمه ، ليجذبوهم الى حظائر قربه ومعرفته .

وفى هذه المرحلة كان أخص ما يتحدث فيه أئمتهم أسرار التوحيد ودلائل الربوبية ولم تخرج أحاديثهم قط عن السنن الاقوم المعتمد على الأصول الشرعية ، بيد انها كانت تخرج الى الناس بأسلوب على غير ما عهده العلماء فى الجدل المنطقي الذى كان يسود الحياة العلمية

الإسلامية منذ القرن الثاني، بل كان أسلوبهم أسلوباً منفرداً بخصائصه خلع الله عليه جلابيب القبول، والصوثة على انعقوله، يفهمه من أنس به، وينتفع به من يسلم له، روى أن الإمام أبا العباس ابن سريج اجتاز إلى حلقه الجنيد، وكان يتكلم في التوحيد، فسمع كلامه، فسأله عنه، فقال: لا أدري ما يقول، ولكني أجده لكلامه صولة ليست بصولة مبطل. وفي القرن الرابع كانت للصوفية حقيقة كبرى من الحقائق التاريخية الوجودية في حياة المسلمين، استكملت جميع مقوماتها، وأصبحت لها مدارسها الخاصة، ومحافلها الحاشدة ومصطلحاتها العلمية وطرائقها في التفكير، ومناهجها في التربية والسلوك.

وفي هذه الفترة من عنفوان القرن الرابع عاش محمد بن أبي الحسن المعروف بابي طالب المكي صاحب «قوت القلوب» وهو الكتاب العظيم الجامع لعلوم المتصوفة وأحوالهم ومقاماتهم، وهو دائرة معارف لهم، ومصدر من أوسع مصادرهم، عرض فيه أبو طالب منهج الصوفية العلمي وإبان عن سلوكهم، ورسومهم في المعارف الربانية، وطريقته فهمهم للنصوص الشرعية من الآيات القرآنية والإسنادات النبوية حريصاً على أن يجعل من أقوال العلماء والأئمة في فهم هذه النصوص وسيلة لتقريب فهم الصوفية إلى الناس أو ليجعل فهم الصوفية في النصوص متشعباً مع آراء علماء الشريعة الذين سماهم أبو طالب علماء الظاهر وجعل عليهم علم الظاهر، وعلم الصوفية علم الباطن وربط بين العلمين ربطاً جعل أحدهما لا يستغنى عن الآخر مع تفضيل علم الباطن ورفع درجته على علم الظاهر فيقول: ولعمري إن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه.

وهذا هو الامتياز الذي اتخذته المتصوفة خصيصتهم بين علماء الإسلام، وهو الذي يدندنون حوله، وهو الذي فتح لمتأخريهم أبواب التوسع في معاني النصوص توسعاً يخرجها عن حقائقها الشرعية، فإذا عورضوا بمدلولات الالفاظ وأوضاعها اللغوية والشرعية قالوا: هيئات فهيات هذه المدلولات والأوضاع اللغوية والشرعية هي من علم الظاهر الذي يكلف به العامة، وهناك وراء هذه المدلولات والأوضاع علم الباطن الذي هو ثمرة الفتح الناشئ عن المعرفة وصدق المعاملة مع الله سبحانه، ويستدلون بحديث (من عدل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

وأبو طالب المكي وإن كان مسبقاً بها الاتجاه الصوفي لكنه يعتبر أول من وضعه وضعا علمياً يحتاج له بالنصوص وأقوال الأئمة من علماء الشريعة. ولهذا كان كتابه «القوت» من أهم مصادر الصوفية المحافظين

ونحن نسوق مثلاً من كتابه على اتجاهه هذا ليطين حظ هذا
الامام من تأميس التصوف تأسيماً علمياً ، وهذا التأسيس اجلئ
مرحلة ثانية من مراحل التصوف ، وهى أهم واعظم مراحلها ، وعليها بنى
كل من جاء بعده ، وهى الطريقة التى تبطنها الامام الغزالي فى كتابه
«الاحياء» مقارياً محافظاً على أصول الشريعة وفروعها .

قال أبو طائب فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العيش)
فريضة على كل مسلم (: قال علما أبو محمد سهل رحمه الله : أراد
بذلك علم حال ، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى اقيم فيه ، بأن يعلم
احكام حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة ،
فيقوم باحكام الله تعالى عليه فى ذلك .

وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة ، وقيام العبد بحكم
ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره .

وقال بعض علماء الشام : انما عنى به طلب علم الاخلاص ومعرفة
افات النفس ووسوسها ، ومعرفة مكاييد العدو وخدعه وغروره . وما
يصلح الاعمال ويفسدها ، فريضة كله من حيث كان الاخلاص فى الاعمال
فريضة ، ومن حيث أعلم بمداورة ابليس ، ثم أمر بمعاداته ، وذهب
الى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأزمرى ومن تابعه .

وقال بعض البصريين فى معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر
وتفصيلها فريضة . لانها رسل الله الى العبد ، ووسواس العيوب
والنفس ، فيستجيب لله تعالى بتنفيذ ما منه اليه ، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد
واختيار تقتضيه مجاهدة نفسه فى نفيها ، ولانها أول النية التى هى
أول كل عمل ، وعنها تظهر الافعال ، وعلى قدرها تضاعف الاعمال
فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة
النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل ليميز بذلك الاحكام وهذا عند
هؤلاء فريضة ، وهو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى ،
وعبد الواحد بن زيد واتباعهم من النساك ، وقد كان استاذهم الحسن
البصرى يتكلم فى ذلك ، وعنده علم لقلوب .

وقال عباد اهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة ، اذ قد أمر
الله تعالى به ، واجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام ، وقد جاء فى
حديث مفسر : « طالب الحلال فريضة بعد الفريضة » ومال الى هذا القول
ابراهيم بن ادهم ، ويوسف بن اسباط ووهيب بن الورد ، وحبيب بن
حرب .

وقال هذه الطائفة من اهل المعرفة : معناه لب علم البنان

فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لاهل القلوب ممن استعمل منه ، واقتضى منه مئة دون غيره من عوام المسلمين ، ولأنه جاء في لفظ الحديث: (تعلموا اليقين) فمعناه علم اليقين ، وعلم اليقين لا يوجد الا عند الموقنين ، وهو عن أعمال الموقنين الخصوص في قلوب العارفين ، وهو العلم النافع الذي هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر في قوله صلى الله عليه وسلم : « وعلم باطن في القلب ، وهو العلم النافع » فهذا تفسير ما أجمل في غيره .

وقال جندب : كنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الإيمان ، ثم يعلمنا أنقرآن فازددنا إيماناً ، وسيأتي زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان ، يعنى تعلمنا علم الايمان ، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

وقال بعض السلف : انما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد ، وأصول الامر والنهى والفرق بين الحلال والحرام اذ لا غاية لسنائن العلوم بعد ذلك .

وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هي معلومات ، ثم قد اجمعوا ان ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضاً ، وانما فيه فضل او نذب . وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشراء ، والطلاق والطلاق واذا أراد الدخول فيه افترض عليه من دخوله في ذلك طلب علمه لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يتجر في سوقنا هذا الا من تفقه . ولا أكل الربا . شاء أم أبى ، وكما قيل تفقه ثم اتجر ، رمال ان هذا صفيان الثوري واو حنيفة واصحابهما .

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان : هو ان يكون ارجل في منزله فريد أن يعمل شيئاً من أمر الدين ، أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد ، وعلى العبد في ذلك اعتقاد او عمل فلا يسمعه أن يسكت على ذلك ، ولا يجوز له أن يعمل فيه براه ولا يحكم بهواه ، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند ائنازلة ، فهذا فريضة ، وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث .

وقال آخرون : يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وانما اختلفوا في كيفية الطلب وماهية الاصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال والاعتبار ، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال : من طريق التوفيق والاثر .

وقالت طائفة من هؤلاء : انما أراد طالب علم الشبهات والمشكلات

إذا سمعها العبد وإيتى بها ، وقد كان يسمعه ترك الطلب إذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين ، لا يقع في وهمه ولا يحيك في صدره شيء من الشبهات فيسمعه ترك البحث ، فإذا وقع في سمعه شيء من ذلك ووقر في قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفي حقا فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره ، فيعتقد من ذلك الحق وينفي الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقبيا على شبهة ويتبع الهوى ، أو يكون شاكا في الدين فيعدل عن طريق المؤمنين ، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم ، ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول في دعائه : اللهم أرنا الحق حقا فننتبعه وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك مشتبها علينا فننتبع الهوى ، وهذا مذهب أبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي ، وداود بن علي والحسين الكرابيسي ، والحارث بن أسد المحاسبى ، ومن تابعهم من المتكلمين .

قال أبو طالب رحمه الله بعد أن ساق ما تقدم : فهذه أقوال العلماء في معنى هذا الخبر ، حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ، واحتجنا لكل قول ، فالألفاظ لنا ، والمعنى لهم ، وهذا كله حسن ومحتمل ، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا في تفسير الحديث بالفاظ ، فإنهم متقاربون في المعنى إلا أهل الظاهر منهم ، فإنهم حملوه على ما يعلمونه ، وأهل الباطن تأولوه على علمهم ، ونعمري أن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب ، لا ينفك أحدهما عن صاحبه

ثم قال أبو طالب : والذي عندنا في حقيقة معنى هذا الخبر - والله أعلم - أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة . يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى عليها الإسلام من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها ، ثم أن العمل لا يصح إلا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضا من حيث افترض العمل .

ثم ذهب يفصل القول في ادخال جميع الاقوال المتبصرة عند علماء الشرع من الفقهاء والمحدثين ، وعند علماء علم القلوب والحواسر واليقين من المتصوفة في عموم القول الذى اختاره ، وهذا حسن بيد أنه اخراج الحديث عن عموم المقصود بدلالة ما أورده أبو طالب من التصوص الخاصة في بعض العلوم ، وادخال اصحابها لها تحت مفهوم العموم من الحديث .

ومن حق هذا البحث أن يفهم هذا الحديث الدائر على السنة

العلماء ، الذي يعتبرونه سنداً قوياً فى نصوص الاسلام على حبه للعلم والمعرفة ، وتقديرهما حق قدرهما واعظامهما والحث عليهما ، انه - كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - على عمومه فى سائر أنواع العلم والمعرفة ، والمخاطب به الامة كلها ، فلا يخرج عنه علم من العلوم ، ولا باب من ابواب المعرفة ، ولا ينبغى قصره على شئ منها دون غيره وفرض الكفاية باق على فرضيته بالنسبة لعموم الامة ، وفرض الاعيان متوجه على الافراد والذوات المكلفين فى ضمن عموم خطاب الامة .

وفى ايراد هذا الحديث بنصه الذى أورده به أبو طالب رحمه الله دقة حديثية تثنى للامام أبى طالب ، حيث رواه مقطوعاً عما زاده فيه بعض التأخرين ممن لم يترس على النظر فى احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلمة (ومسلمة) وهو بنصه الصحيح كما رواه الثقة ، وكما ذكره فى « القوت » لا حاجة به الى هذه الزيادة ، لانه جرى على سبيل النصوص العامة التى ترد بلفظ التذكير ، ويراد بها ما يعم الرجال والنساء فى التكليف باعتبار ان التكليف يسمو بين الرجال والنساء ولا يفرق بينهم ، وانساء شقائق الرجال فى جميع الاحكام الا ما خصه الدليل بالنص ، او بطبيعة الحلقة الالهية والتكوين الربانى .

فانظر الى هذا الامام العالم الصوفى « المتفقه الربانى كيف ادار الحديث فى بيان معنى الحديث المشهور المتعالم بين العلماء ، وكيف عرض فى تفسير معناه اقوال العلماء من الفقهاء والمتحدثين والمتكلمين والنسائك المتعبدین ارباب علم القلوب ، بل كيف أدخل فى معناه خطرات بعض المتصوفة وسبحاتهم البعيدة الاحتمال عن معنى الحديث ، وجعل تلك الخطرات معنى محتملاً فى جملة ما يحتمله الحديث من التفسير والمعنى ، وانظر اليه كيف استدلل لكل قول بنصوص من الاحاديث واقوال اكابر الصحابة رضوان الله عليهم التى وردت فى تلك المعانى الخاصة بمحصل ورودها ، حتى المعانى التى نحا نحوها المتصوفة استدلل لها بنصوص خاصة فى معانيها ، وهذه النصوص الخاصة مشهورة عندهم مداولاً بينهم ، ولكنها لا ترتفع الى درجة حديث (طالب العلم فريضة على كل مسلم)

فأبو طالب المكي رحمه الله تعالى يريد من هذا الاتجاه العلمى فى كتابه أن يفهم قارئوه من سائر الطوائف والمذاهب أن (المتصوفة) لا يذهبون فى فهم النصوص فهماً لا تحتمله معانيها ، فهم وان قسألوا يعلم الباطن فى تفسير النصوص فانهم لا يخرجون بباطنهم عن مؤاخذ علم الظاهر .

وذلك هو ما قصصناه بقولنا : ان أبا طالب المكي أسس بكتابيه

« الفوت » التصوف تاسيسا علميا ابتدأت به المرحلة الثانية من مراحل
« التصوف » .

جاء بعد أبى طالب المكي فى النصف الثانى من القرن الرابع
الهجرى الامام زين الاسلام أبو القاسم القشيرى وكان من أئمة المسلمين
فى الفقه وأصوله ، وأصول الدين وطرائق المتكلمين ، وله فى الحديث
وروايته مكان لا يقتصر ، وفى التفسير مقام لا يهدم وفى الادب وبراعته
إيمان كان آية من آيات الفصحى ، وكان فى حدة الذكاء وقوة الحافظة
مثلا مضروبا ، روى أنه اختلف الى درس الأستاذ الامام أبى إسحاق
الاسفرايينى ، وسمع دروسه فى جملة أيام ، فقال له الأستاذ : هذا
العلم لا يحصل بالسماع ، فأعاد على الامام جميع ما سمعه منه فى سائر
الأيام التى حضرها مع الضبط وحسن التقرير ، فتعجب منه أبو إسحاق
وقال له : ما كنت أدري أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج الى دروسى ،
يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقى ، لأن اشكل عليك شيء
طالعتهنى به .

وكان من حسن موافقت الاقدار الالهية لأبى القاسم القشيرى أن
جميعه الله على الشيخ أبى على الدقاق ، وهو امام وقته فى علم المعتملات
والخواطر وكان لسنن الصوفية الناطق بعلومها فى عصره ، حضر القشيرى
مجالسه وسمع منه ، فأعجبه ولازمه ورأى الدقاق نجابته فأرشده الى
اشتغال بالعلم ، فاشتغل به وحضر دروس الأئمة من أضراب أبى بكر
الطوسى ، وابن فورك والاسفرايينى وقرأ كتاب الباقلانى حتى برع فى
أقنون الشريعة والعقيدة والعربية ، ولم ينقطع عن مجالس الدقاق
الذى حنق عليه علم القلوب ، وتمرس على اشارات الصوفية ولوامع
خواطرهم بعد طول الرياضة والمجاهدة حتى أصبحت أحوال الصوفية
خلقا له وفطرة مع تضلعه فى سائر العلوم ، وقد ألف فى كل فن كان
فى عصره معروفا فى العازم الشرعية والأدبية مؤلفات اشتهرت بين
العلماء فى الشرق والغرب - ومن أشهرها تفسيره للقرآن الحكيم ، الذى
يعد مرجعا من المراجع الاصلية لكافة المفسرين الذين جاءوا بعده .

ولما أحكم أبو القاسم القشيرى طريق القوم على يد استاذة الدقاق
سلك بعد وفاته مسلك الرياضة والمجاهدة والتجريد ، ووضع فى
« التصوف » رسالته التى اشتهرت فى مشارق الارض ومغاربها حتى
جاوزت شهرتها بلاد الاسلام ، وقد سلك فيها أبو القاسم مسلكا صوفيا
بحتسا ، وهو يقول فى مقدمتها : أنه كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان
الاسلام ، ثم أخذ يذكر نموت طائفة الصوفية الذين مضوا قبل عصره
ذلك الذى امتحن فيه اكابر العلماء من أهل السنة ، وفى مقدمتهم صاحب

الرسالة فقال : (جعل الله هذه الطائفة صفوة اوليائه ، وفضلهم على الكافة من عبادته بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسبراره ، واختصهم من بين الامة بطواع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون في عموم احوالهم مع الحق بالحق ، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ، ووفهم للقيام بأداب العمودية ، واشهدهم مجارى أحكام الربوبية ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب والتصرف ، ثم رجعوا الى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الاعمال ، أو صفا لهم من الاحوال ، هلمسا منهم بانه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم عدل ، وأمره قضاء فصل) .

ثم اخذ أبو القاسم يذكر ما أصاب هذه الطائفة في عصره من انقراض محققهم . فدخل البلاد منهم ، وسوء حال المدعين لطريقتهم ، واستفحال فسدهم حتى ادعى من ادعى منهم أنهم (تحرروا عن رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم محو : وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كشفوا بأسرار الاحدية واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت أحكام البشرية ، ويقوا بعد فئاتهم بانوار الصمدية ، والقتل عنهم غيرهم اذا انطلقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا)

وهذا اشارة الى منهج نحلة ضالة ادعت التصوف لتستتر به ، وهم اباحيون ، يسقطون التكاليف ، وهم الذين قال فيهم الجنيذ رضى الله عنه : ان من يسرق وي زنئ خير من هؤلاء وهذه الاشارة من أبى القاسم النقشبرى تدل على ما دخل على الصوفية من تلاعب وفساد على يد بعض الطوائف الضالة من الباطنية .

ثم ذكر أبو القاسم انه أشفق على القلوب ان تضل القصد في حق التصوف والمتصوفين فتحسب ان امر هذه الطائفة بنى قواعد على هذه الجميلة التي حكاهما عن أهل الضلالة ، فعلق (هذه الرسالة ، وذكر فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم واخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيتهم من بدايتهم الى نهايتهم لتكون لريدى هذه الطريقة قوة) .

والنقشبرى رحمه الله تعالى قد نقل « التصوف » برسالته نقلة كبرى لانه أجرى الحديث في فصولها وموضوعاتها بطريقة صوفية بحتة ، لم يسلك فيها مسلك المحاسبى فى (الرعاية) بل ولا مسلك أبى طالب المكي فى (القوت) من حيث مزج النصوص الشرعية بأقوال الصوفية وآدابهم فى

ثانياً الابواب والفصول . بل يكتفى فى الاعم الغلب بإيراد بعض النصوص من الآى أو الاحاديث النبوية فى أوائل الابواب ثم تنقلت مسرعاً الى أقوال صوفية يشرح بها ما يريد من الفاظهم .

وخصص أبو القاسم رحمه الله تعالى باباً من رسالته لذكر مصطلحات القوم فى أحوالهم ومقاماتهم بالفاظهم التى تدور على سنتهم . وخصص كل لفظ بفصل مستقل ، لتفسيره وبيان معناه بأقوال أكابرهم .

وقد ترجم فى باب من ابواب الرسالة لبعض شيوخهم ، ثم أخذ فى شرح تلك الالفاظ التى يعبرون بها عن معان يحسونها بقلوبهم وعقولهم ووجدانهم فيذكر أبو القاسم : الوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض والبسط ، والهيبة والانس ، والتواجد ، والوجود والجمع والفرق وجمع الجمع والفناء ، والبقاء ، والشريعة والحقيقة وغير ذلك من الفاظهم التى يقصنون بها الى معان لا يعرفها غيرهم ولا يقول بها سواهم .

وذكر أبو القاسم رحمه الله فى باب (حفظ قلوب الشيوخ وترك الخلاف عليهم) أموراً يتوقف فى قبولها أهل الشرع ، ولا يرغـها العقليون ، وساق فى مطلع هذا الباب قصة موسى والخضر عليهما السلام لبيان ما يلزم من أدب الصحبة بين العلماء بالله ، وليس هذا من قبيل اعتماد كفة متاخري المتصوفة على هذه القصة فى مسألة علم الظاهر والباطن ، ومسألة الحقبة والشريعة عندهم .

والقصة — كما جرت فى القرآن الكريم وصحيف الحديث — لا تتعد فيها لشيء من ذلك ، لأنها وردت على سبب معين ، كما فى حديث البخارى ومسلم (ان موسى عليه السلام قام خطيباً فى بني اسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا : فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه ، ان فى عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك) واستدل موسى عليه السلام ربه على مكان هذا العبد الاعلم منه ، ليتعلم منه ما علمه الله . فدل الله عليه ، وذهب اليه موسى عليه السلام ، وجرت الحوادث الخاصة التى كان العبد العليم يعلم حكمها بتعليم الله ووحيه ، ولم يكن موسى عليه السلام على علم بأحكامها ، لأن الله لم يعلمه بها بوحيه ، اذ لم تكن نوازلها واحداً ، مما يحتاج الى علم الحكم فيها ، لأنها لم تقع فى قومه ولو احتاج اليه توقعها لوجب أن يكون على علم بها اداه لخلق الرسل والأنبياء .

ولذلك قال العلماء بالقرآن ، والسنة : أى معنى قوله : هو أعلم منك ، أى — بأحكام وقائع مفصلة وحكم نوازل معينة ، لا مطلقاً فى جميع العلم والمسائل ، بدليل قول العبد العليم لموسى : (انك على علم عنك الله لا

أعلمه أنا ، وأنا على علم علمنيه الله لاتعلمه انت) وهذا صريح فى ان كل واحد منهما كان اعلم من صاحبه بالنسبة الى مايعلمه بوحى الله اليه ولا يعلمه الاخر ، لان الله تعالى لم يأمره به لا كما يفسر الى ذلك قوله (وما فعلته عن أمرى) .

وهذا شبيه بما ورد فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرت اذ نفثت فيه غنم القوم وكلا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلمنا) قال العلماء بالقرآن والسنة : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى اليهما ، فحكم داود بوحى ، وحكم سليمان بوحى : وكلا حكميهما صحيح ، لكن حكم سليمان كان ارفق بالقوم ، ولذلك اتنى الله عليهما فى نسق واحد فقال : (وكلا آتينا حكما وعلمنا) . ولو كان حكم داود خطأ لما اتنى الله عليه مع سليمان باعطائه الحكم والعلم معا كما اعطاهما لسليمان .

ومن هذا الباب حديث أبى هريرة عند مسلم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (بينا امرأتان مهمما ابناهما جاء الذهب فذهب بائن احدهما ، فقالت هذه لصاحبتها : انما ذهب بابنك انت ، وقالت الاخرى : انما ذهب بابنك ، فتحاكما الى داود ، فلقى به للكبرى : فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام ، فأخبرتا ، فقال : اتوني بالسكين أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى ، لا ، يرحمك الله ، هو ابنها ؛ فلقى به للصغرى : فحكم داود عليه صحيح باعتبار التشريع العام والاخذ بالقرائن والامارات الظاهرة ؛ وحكم سليمان صحيح باعتبار هذه النازلة التى ظهر له فيها صدق الصغرى فحكم لها به تغليباً لقرائنها واماراتها على قرائن وامارات الكبرى .

وفى قضية موسى عليه السلام كان العبد العليم بحكم نوازله الخاصة نبيا يوحى اليه بدليل قوله فى آخر القصة (وما فعلته عن أمرى) ولا مانع ان يكون عند احد الانبياء - الموجودين فى زمان واحد علم باحكام حوادث تقع فى قومه ليس هذا العلم عند غيره من الانبياء الذين لا يحتاجون فى قوتهم الى حكم هذه النوازل بعينها .

ويستحيل ان يكون غير النبى أعلم من النبى لما يؤديه ذلك الى العلم فى مقام النبوة ، وهو أعلى مقامات البشر عند الله تعالى ، فلا تعلق لقبير الراسخين من القوم ولا سند لهم فى هذه القصة التى يتشبثون بها فى حكاية الظاهر والباطن ، والحقيقة والشريعة ، وكل ماجرى فى القصة هو من العلم الشرعى الذى علمه الله لعبده العليم بوحى منه تعالى ، ولم يعلمه موسى عليه السلام ، لانه لم يحتج اليه فى قومه ، ولو احتاج اليه موسى فى قومه لوجب ان يكون على علم به من الله تعالى .

ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين وأكابر الائمة والراسخين من أهل العلم بالله قول بخلاف ذلك ، وإنما كانت هذه الظاهرة عند المتشبهين بالتصوفة من العاطلين عن حلى الاخلاص والمراقبة .

وأبو القاسم رحمه الله يروى فى هذا الباب عن أبى عبد الرحمن السلمى انه قال : خرجت الى مرو فى حياة شيعى الإستاذ أبى سهل الصعلوكى ، وكان له قبل خروجى أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن والختم فوجدته عند رجوعى قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لآبى الغفانى فى ذلك الوقت مجلس لقول - اى السماع - فدخلنى من ذلك شيء ، فكنت أقول فى نفسى : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول ، فقال لى يوما : يا أبابا عبد الرحمن ايش يقول الناس فى ؟ فقلت : يقولون : رفع مجلس القرآن ووضع مجلس القول ، فقال : من قال لإستاذه : لم . لا يفتح أبدا .

هذه الحكاية وأمثالها يجرى مافيهما عند متأخرى المتصوفة منجرى القانون الحتمى الذى لا تصح مخالفته فيما بين الاستاذ ومريديه ، وليس من حق التلميذ والمريد عندهم أن يقول لإستاذه : لم فعلت ؟ ولا لم تركت ؟ ولو رأى منه المخالفة الظاهرة لأوامر الشريعة ونواهيها ، وبعض مؤلفيهم يبرزه فى صياغة يجعلها من أدب المريد والتلميذ مع استاذة فيقولون فى أدب انطريق : يجب على المريد ان يكون مع شيخه كالملت بين يدي الغاسل لا إرادة له معه .

وهذا أمر خطير فى دين الاسلام ، يفتح أبواب تعطيل الشريعة أمام من لم ترسخ قدمه فى معرفة الله تعالى ، ويؤدى الى عدم احتشام الاحكام واحترامها ، والى الاستهتار بها تحت ستار الاستاذية والمريديّة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والخلفاء الراشدون يقول كل واحد منهم لرعيته : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فيقوم اليه رجل من عرض الصوف ، ويقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد الله تعالى عمر على أن جعل فى رعيته من رزق من شجاعة النفس وقوة الدين ، فيقوم اعوجاج خليفته بسيفه .

والامة مجمعة على أن شرعة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لا تبطل بالاستاذية والتلمذة ، فالحكم على المريد الذى يقول لشيخه : لم ؟ استطلعا لوجه الامر فعل لم يفهم وجهه ، أو انكارا لعمل من الاعمال رآه التلميذ مخالفا لقواعد الشرع وأحكامه ، بأنه لا يقلح حكم لا يقره الشرع ولا

يرقباه العقل ، ويتنافى مع التربية الإسلامية التي توجب شجاعة النفس
وجرأة القلب فى الحق .

والمعروف فى آدب الارشاد الشرعى انه يترك للتلميذ فرصة الفهم
لما يرى ويسمع ، ثم يسمع منه بصدر رحب ما يعتلج فى نفسه ليرشد
الى الصواب ان أخطأ ، ويقوم اذا اعوج .

ويجب فى هذا المقام أن يفرق بين السائل ليفهم ، وينهض و غير
صلوه ، وبين السائل تعنتا أو تنقضا ، فحق الاول رحابة الصدور الارشاد
وانتفهم والصبر على معالجته ، وحق التنى الادب ، كما يجب الفرق بين
انكار الامور التى لها مخزج من الشرع ، والامور التى لا مخزج لها
فى مذاهب العلماء ، فحق الاولى بيان مخارجها وحق الثانية التسليم
لمن أنكر عليها .

ويحكى القشيري فى هذا الباب . ان شقيق البلخي وابا تراب
التخسبي قدما على أبى يزيد البسطامي رضى الله عنهم ، فقدمت السفرة
وشدب يخدم أبى يزيد ، فقالا له : كل معنا يا فتى ، فقال : أنا صائم :
فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فأبى : فقال شقيق : كل
ونك أجر صوم سنة ، فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين الله
تعالى ، فآخذ ذلك الشاب فى السرقة بعد سنة فقطعت يده .

وهذه الحكاية من جنس ما تقدم ، بل أشد ، لان أهل الله قلوبهم
مشغولة بالله تعالى ، مليئة برحمته ولطفه بخلقه ، فهذا الشاب صائم
مئليس بعبادة الله تعالى ، دعى الى ابطالها ومشاركة الاشياخ طعامهم
وهو شرف لهذا المريد ، ولكنه رأى أن يختار رضا الله تعالى بالاستمرار فى
عبادته على هذا الشرف ، فما كان يضر هذه الحكاية لو جعلت هذا النساب
من أبطال أهل الله الذين يؤثرون الله على خلقه ويؤثرونه على شهواتهم ؟
وما كان يضر هذه لحكاية لو انها جعلت مكان سخط الاشياخ على شباب
يخدم احدهم دعوات له بالتوفيق يجذبه الى الاخذ فى رفيع الطاعة بديلا
عن الاخذ فى السرقة التى قطعت يده فيها ؟ وأصبح مقصيا من حظيرة
أصحاب القلوب الرحيمة ؟

وأبو القاسم رحمه الله تعالى يجعل من الصوفية مذهبيا يجب على
المريدين أتباعه وعدم الالتفات الى غيره من المذاهب الشرعية فيقول :
(ويقبح بالزيد أن ينتسب الى مذهب من مذاهب مسن ليس من هـذنه
الطريقة ، وليس انتساب الصوفى الى مذهب من مذاهب المختلفين سوى
طريقة الصوفية الا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فان هؤلاء
حججهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من

فواعد كل مذهب ، والناس اما اصحاب العقل والانز واما ارباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الله سبحانه موجود ، فانهم اهل الوصال والناس اهل الاستدلال) *

وهذا عجيب جدا ، فاین عمل العقل فی تأسیس العقيدة وتصحيحها وتنقيتها من غلص الاباطيل ، وحمايتها من الشبه والاضاليل ؟

وهل يمكن لكل مريد أن يصل باقتصاره على مذهب المتصوفة وعدم نظره في مذاهب الفقه والكلام ان يعرف احكام انوازل في العبادات والمعاملات ، وان يحمي عقيدته من تشويش اهل البدع والاضلال ؟

وأين عمل الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة الذي كان طريق الصحابة وطريق التابعين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين من ائمة الهندي والدين قبل ظهور المتصوفة والتصوف ؟

وهل كان أبو علي الدقاق ، وهو الامام الصوفي الراسخ في العلم والعمل ، شيخ أبي القاسم ومربيه على طريقة القوم حينما ارشده الى الاشتغال بالعلم في مطلع حياته يقصد بالعلم غير دراسة مذاهب العلماء في علوم الشريعة العقلية والعقلية من الفقه والحديث والتفسير والكلام ، وهي العلوم التي نبغ فيها أبو القاسم القشيري ، وخلفه في موضوعاتها للعالم الاسلامي مصنفات تعد بين العلماء مراجع لها المكان المرموق من الاعتبار والتقدير ؟

وهل كان هذا الامام المتصوف الضليع في طريق القلوب - وهو يشهد تلميذه أبو القاسم يتردد بين مجلسه ومجالس ائمة وقته في علوم الشريعة من اضراب الاسفراييني والطوسي ، وابن فورك غير ناصح لمريده وتلميذه ؟

كلا ، لا هذا ، ولا ذاك ؛ وانما هو حكم العصر والبيئة والمجتمع ؛ عصر أبي القاسم القشيري ، ومجتمع الاسلام في ذلك العصر ، هو الذي دفع أبا القاسم الى أن يكتب هذا في رسالته نصيحة لمريدي المتصوفة ، وخشية عليهم أن تتخطفهم ذئاب الجدل والمراء من طوائف الابتداع والتفلسف ، وخشية أن يقضى عليهم فراغ القلوب من تقوى الله وخشيته بالاشتغال بتفريغ مسائل الفقه التي لم تقع نوازلها في الحياة ؛ وهو عصر شهد فيه أبو القاسم شملائد المحن والبلايا التي حملته وحملت كثيرا من ائمة وقته على الهجرة الى المجاورة بمكة المكرمة حتى كشف الله عن المسلمين تلك النعمة وعاد الائمة الى ديارهم مدارسهم *

هؤلاء الائمة الاربعة الذين تحدثنا عنهم وعن كتبهم في هذا الفصل .

وجعلناهم مرآة لانعكس اطوار « التصوف » التاريخية في الاسلام هم الذين وضعوا « التصوف » موضعه من التاريخ في الاسلام ، وهم الذين تدرجوا به الى أطواره من مهده الى أن شب واستوى مذهباً من مذاهب التفكير في الاسلام .

فلمحاسبي رحمه الله تعالى امام من أئمة الاسلام ومتكلم من متكلمي الذين نهضوا للرد على أهل الابتداع ، كتب للامة آداب الزهاد وأنسأك ، وما يجب أن يكون عليه العبد في رعاية حقوق الله ، مستمداً ذلك من الكتاب والسنة وفهم الأئمة من الصحابة والتابعين وسلوكهم في الاخلاص والعمل ليحيل مما كتب نواة لجذب الناس الى منازل الاخلاص وتصفية القلوب ، معتمداً على علمه بالشريعة أصولها وفروعها وتطبيقها ، ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة في عصره وجود مذهب خالص يقصد الى تصويره والتحدث عنه ، ومن هنا ولشهرته في الرد على المبتدعة ذكره أبو طالب المكي من بين المتكلمين ؛ ولم يره من علمائهم علماء الباطن .

وأبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى امام من أئمة المتصوفة ، عليم بالشريعة وآدابها ، كتب للذئس آداب المتصوفة وهي في مهدها لم تستكمل شخصيتها الاستقلالية فهي تعيش مع الفقهاء في مذاهبهم ومع المتكلمين في طرائقهم الاولى قبل منطق الفلسفة ومع المحدثين في سلوكهم ، ومع المفسرين في اتجاهاتهم ، ولكنها مع ذلك ليست مغمورة بالمعالم بينهم . بل كان لها سماتها في التطبيق والعمل ، والتنسك والتعب .

ولذلك كانت كتابة أبي سعيد رضى الله عنه مزيجاً من مصادر الشريعة انصافية ، مجسدة بشواهد التطبيق العملي في دائرة صدق المراقبة والاخلاص .

وأبو طالب المكي رحمه الله تعالى كان عليماً بالتصوف كمذهب يستمد خصائصه الاولى من الشريعة المطهرة أصولها وفروعها ، كتب ليبين للناس أن علم التصوف هو خلاصة علم الشريعة ، وأن عمل المتصوفة هو ثمرة العمل بالشريعة ، وأن هذا العمل اذا قام على الاخلاص والمراقبة فتح أبواباً من المعرفة والعلم ، لا تفتح بغير المجاهدة والصبر على مشقة التعب ومحاسبة النفس على خطراتها ، وأن هذه الابواب من العلم والمعرفة لا يقوم عليها الا من نور الله قلبه ، وأراه بعين بصيرته من المعارف والعلوم ما لا يراه الزائقون مع عقولهم عند ظواهر النصوص ، وهذا ما يسميه علم الباطن ، ولكنه يربطه بعلم الشريعة برابط لا ينقسم .

أما الامام أبو القاسم النقشیری فقد كان رحمه الله تعالى في رسالته صورة صادقة للتصوف في ذروة مراحلها ، ونهاية أطواره ، كمذهب مستقل

بين مذاهب الاسلام في طريقة تفكيره في الاعتقاد والتعبئة ، وصورة صادقة للمتصوفة كفرقة من فرق المسلمين ، لها طريقها الخاصة في فهم النصوص وتأسيس العقيدة وتطبيق أصولها وفروعها في الاعمال والمجاهدات .

وكل من جاء بعد القشيري اما اخذ منه ما تج بدلوه ، نازع من منبعه ؛ واما مفلس لما اخذ منه ؛ مستمطر غيئه ؛ مستظل بظله ؛ واما هارب من طريقه متمسك تحت يعض افكاره ومبادئه .

وهؤلاء الهاربون هم الذين فلسفوا التصوف وعقدوا طرائقه ، وادخلوا عليه غرائب العقائد الوثنية ، وشذذات النحل والمذاهب اللاحادية ، كالذين همهموا بوحدة الوجود ، أو الذين قانونا بأسقاط التكاليف عن عرفهم الواصلين الى الاتحاد والاباحية من كل ما يخالف أصول الاسلام وعقائده .

تصوف الغزالي

جاء الغزالي فوجد التصوف مذهباً قائم الدعائم ، واضح المعالم بأصوله وقواعده العلمية ومؤلفاته الضافية ، ووجد المتصوفة فرقة من المسلمين لها خصائصها المميزة ، ولها كياناتها المستقلة في طريقة تأسيس عقائدها ، وفي طريقة تعييدها ، بل وجدها في بلده ، وفي بيته ، حضنته بآدابها وسلوكها طفلاً ، ووجهته بصديقتها في المعاملة مع الخلق الى الاشتغال بالعام ، فعن طريقها على يد شيخه وصي أبيه عليه وعلى أخيه عرف طريقه الى المدارس العلمية ، وجلس في حلقاتها يسمع من أئمتها الفقه في بلده طوس ، وفي جرجان ثم يرحل الى أستاذ عصره امام الحرمين فيلقاه في نظامية نيسابور ، يحضه حوله طائفة من أذكيا الشباب ، يأخذون عنه أصول الفقه وأصول الدين ، والمنطق ، والحكمة ويتعلمون منه طرائق الجدل والمناظرة فيزاحمهم الغزالي وهو غض الشباب حتى زحهم ، ونافسهم على علوم الامام حتى غلبهم ، وتشبع حتى تضلع ، ولما توفي أستاذه رحل الى نظام الملك الوزير العالم الصوفي ، فوجد للصوفية عنده مقامهم الذي لا يسامى فخالطهم وعاشهم ، وجلس الى حلقاتهم ونظر الى سهرهم الليل وطمأهم بالنهار قياماً لله بحق العبودية ، وسمع كلامهم ، واستطلع بواطنهم واستجلى أنوارهم ، ثم رحل الى بغداد وعاد الى نيسابور فوجدهم قياماً في خلواتهم على قدم الاخلاص ، طرخوا الدنيا بما فيها من أهواء وشهوات وسمعة وجاه ، وسلطان ، وتعزز بالعلم ، وكان الغزالي قد بلغ من ذلك كله المبلغ الذي ليس فوقه درجة لستزيد وليس

وراه غاية لريد ، ذكاء خارق وعلم غزير ، جمع كافة معارف عصره ، وهو عصر كان أجمع العصور للعلم بأنواعه والمعرفة على سائر ضروبها ، إلى جاء عريض وسلطان بنافس سلطان الخلفاء والأمراء في الدولة ، وغلبة في الجدل والمناظرة ورياسة في التدريس ، وشهرة طبقت الشرق والغرب ، وسعة ملأت آفاق الأرض .

ثم ماذا ؟ إنها عناية الله تعالى هي التي وجهت الغزالي إلى الانضواء تحت لواء طائفة الصوفية بعد هذا الاستعداد العلمي العظيم الذي انفراد به الغزالي في عصره حتى لقب بحجة الاسلام .

وخصيصة الغزالي انه مفكر نادر ، لا يؤمن حتى يفهم ولا يفهم حتى يدرس ويبحث وقد درس وعلم وفهم وحصل ، كل ما وعته العقول والافكار ، ونظر الى نفسه بعد كل ذلك فظهر له كما يقول (انه لا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وإن راس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإن ذلك لا يتم الا بالأعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلايق ، ثم انى لا حظت أحوالى فإذا أنا متغمس في العلايق ، وقد احلقت بى من الجوانب ، ولا حظت أعمالى واحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعناها ومحركها طامع الجاه وانشار النصيت فتيقنت انى على شفا جرف هار ، وانى قد اشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافى الاحوال) (١).

وصمم العزم واقبل بهمته على طريق الصوفية ، وعلم ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها الذمومة وصفاتها الحبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليه من العمل .

وهكذا آمن الغزالي بالصوفية والتصوف ، وآمن ان فيها دواءه من أمراض الدنيا وشهواتها وانها الطريق الموصل الى الله ، والسبيل المؤدى الى الفوز في الآخرة برضوانه .

ولكن الغزالي ربيب العلم والمعرفة ، صاحب العقل العبقري ، لا يمكن ان يسلك طريقاً الا بعد ان يجوسه بعلمه ، ويختبره بعقله ، فأتجه الى علوم الصوفية فوجدها مهددة في كتب المحاسبي ، وأبى طالب المكي ، وأبى القاسم القشيري، وفي المتفرقات الماثورة عن أكابرهم يتلقاها بالسمع،

(١) المنقذ من الضلال .

من ثقاتهم ، فعكف على هذا المحصول العلمي يدرسه ويبحثه حتى أطلع على كنهه مقاصد أصحابه ، وظهر نه انهم خصوا بما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالدوق والحال وتبديل الصفات ، وعلم الغزالي يقينا ان الصوفية أرباب احوال لا اصحاب اقوال ، وان مايمكن تحصيله من علومهم بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق الا ما لا سبيل اليه باسماع والتعلم ، بل بالدوق والسلوك .

يقول الغزالي : وكان قد حصل معي من العلوم التي مارسستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

لم يتمب الغزالي رحمه الله تعالى في تحصيل علوم الصوفية لان علومه اننى كانت معه وإيمانه بعلوم الصوفية وأحوالهم يسر عليه انتحصيل من أقرب طريق .

بيد أنه تمب في مجاهدة النفس وصرفها من مانوسها مما كان منغمسا فيه من أمور الدنيا التي وصفها ، فاجتمع باشياخ الصوفية وسلم اليهم قياده يرشدونه ويربونه ويلاحظونه في ترقياته وأحواله ، فيمثل أمرهم ويسمع قوبهم ، ويلبى اشاراتهم . يقول الزبيدي في شرح الاحياء وهو مأخوذ من كلام عبد الغافر الفارسي كما تقدم (فاقتنى بصحبة الفارمدى واستفتح منه الطريقة ، وامثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان في النوافل ، واستدامة الاذكار ، والجرود والاجتهاد الى ان جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطالبه) .

وقد سبق ان أخبرنا الى أخذه عن شيخه يوسف النيساب ، وانتوى الى أنه فتح عليه فتحا علميا لا فتحا لدنيا ، وأنه ادرك ان الكتابة على الصفاء الاول أثبت من الكتابة على المحر بعد الاثبات .

لكن الغزالي يقول في (المنقذ من الضلال) : وانكشف لي في أتناه هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى اذكره نيتفع به انى علمت يقينا ان الصوفية هم السانكون لطريق الله تعالى -صمة وان سيرتهم احسن السير ، وأن طريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم ازكى ادخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرح من العلماء لغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا الى ذلك سبيلا ، وان جميع حركاتهم وسكناتهم فى

ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

ثم يقول الغزالي ، وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي اول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجأزي منها مجرى التحريم من الصاوات استغراق القلب بالكلية يذكر الله ، وآخرها الغناء بالكلية في الله ، وهذا آخرها بالإضافة الى ما يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهي على التحقيق اول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك اليه ، ومن اول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقطتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيئ عنها نطاق النطق ، ولا يحاول التعبير عنها معبر الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه .

ثم قال : وعلى الجملة ينتهى الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ في كتاب (المقصد الاسنى) .

والغزالي الذى يؤمن بالصوفية هذا الايمان الذى جر عليه نقس المتفقهة والمحدثين ، ورموه بسببه عن قوس واحدة من سهام من اظعن والتجريح مما قدمنا بعضه ، لا يلقى عقله مع السادة الصوفية اذا وصل الامر الى اساس العقيدة التى قضى عمره ينافح عنها ويكافح فى سبيلها جميع الطوائف والفرق ، ولا يترك علمه ومنطقه العقل الذى اسس عليه الجدل فى سبيل الدفاع عن العقيدة حتى حصنها تحصينا قويا ووقف يحميها وينود عنها حتى لقبته الإمة كلها (حجة الاسلام) .

والذى أشار اليه من بيان الخطأ على ما يتخيله من انتهى به الامر الى القرب من الحلول والاتحاد والوصول هو الذى وقع فيه كثير من ذلت اقدمهم ، والغزالي يذكر فيهم بعض الاكابر ويرد عليهم ونحن نسوق هذا الرد لبيان أن الغزالي لم يستطع أن - يتخلى عن علومه الكلامية ، وهي التى كانت حصنه الذى حفظه عن الوقوع فيما وقع فيه غيره .

قال الغزالي فى شرح أسماء الله الحسنى بعد أن ذكر رد كل اسم شرحه تنبيها على ما للعباد من حظ فى هذا الاسم . (ولقد سمعت الشيخ أبا على الفارمدى يحكى عن شيخه أبى القاسم المكرانى قدس الله روحهما انه قال : ان الاسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو يعد فى السلوك غير واصل وهذا الذى ذكره ان أراد به شيئا يناسب ما أوردناه فهو صحيح ، ولا يظن به الا ذلك ويكسبون فى اللفظ نوع من

التوسع والإبتعارة. فان، معانى الاسماء هي صفات الله تعالى وصفياته لا
تصير صفة لغيره ولكن معناه انه يحصل له ما يناسب تلك الاوصاف كما
يقال: فلان، حصل علم، استاذم، وعلم الإبتداء لا يحصل لتلميذ بل يحصل له
له مثلي، علي، وان ظن ظن ان المراد به ليس بما ذكرناه فهو باطل قطعه
فانه اقول : القائل ان معانى اسماء الله صارت اوصافا لا يخلو اما انه
عنى به غير تلك الصفات او مثلها فان عنى به مثلها فلا يخلو اما انه عنى
به مثلها مطلقا من كل وجه ؛ واما ان عنى به مثلها من حيث الاسم والمشار له
فى عموم الصفات دون تحويل المعانى فهذان قسميان وان عنى به بعينه
فلا يخلو اما ان يكون بطريق انتقال: تصييفات من الرب الى العلم اولا
بالانتقال، فان لم يكن بالانتقال فلا يخلو اما ان يكون
باتحاد ذات العبد بذات الرب حتى يكون هو هو فيكون صفاته
صفاته، واما ان يكون بطريق الحلول فهذه اقسام تصييفات ثلاث
وهو الانتقال والاتحاد والحلول فهذه خمسة اقسام الصحيح منها قسم
واحد وهو ان يثبت للعبد من هذه الصفات امور تناسبها على الجملة
وتشاكلها فى الاسم ولكن لا تماثلها تماثلة تامه كما ذكرناه فى التنبيهات
واما القسم الثانى وهو ان يثبت له امثاله على التحقيق فمحال فان من
جملتها ان يكون له علم محيط بجميع المعلومات حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة
فى الارض ولا فى السموات وان يكون له قدرة واجبة تشمل جميع
المخلوقات حتى يكون بها خالق السموات والارض ومبا بينهما وكيف
يتصور هذا لغير الله تعالى وكيف يكون العبد خالق السموات والارض
وما بينهما وهو حجة ما بينهما فكيف يكون خالق نفسه ثم ان يثبت
هذه الصفات لعبد هو يكون كل واحد منهما خالق صاحبه فيكون لكل
واحد منهما خالق من خلقه وكل ذلك ترهات ومحاولات .

واما القسم الثالث وهو انتقال عين صفات الربوبية فهو ايضا محال
لان الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات وهذا لا يختص بالذات القدسية
بل لا يتصور ان ينتقل عين علم زيد الى عمرو بل لا قيام للصفات الا
بخصوص الموصوفات ولان الانتقال يوجب فراغ المنتقل عنه فيوجب ان
تمرى بالذات التى كان عنها انتقال الصفات الربوبية عن الربوبية
وصفتها وذلك ايضا ظاهر الاستحالة .

واما القسم الرابع وهو الاتحاد فذلك ايضا اظهر بطلانه لان قول
القول ان العبد صار هو الرب كلام متناقض فى نفسه بل ينفي اذ ينزه
الرب سبحانه عن ان يجرى اللسان فى حقه بامثال هذه المحالات ونقول
قولا بطلانه ان قول القائل ان شيئا صار شيئا آخر محال على الاطلاق
لانا نقول اذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل ان زيدا جبارا وعمرا
واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد اما ان يكون كلاهما موجودين او كلاهما
معدومين او زيد موجود وعمرو معدوم او بالعكس ولا يمكن قسم وراء

هذه الأربع فان كنا موجودين فلم يصير أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وانما البنية ان يتحد. مكنهما وذلك لا يوجب الاتحاد فان العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تتباين محابها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد البعض ببعض وان كنا معنويين فما اتحدنا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وان كان أحدهما معنويًا والاخر موجودا فلا اتحاد اذ لا يتحد موجود بمسندوم فالاتحاد بين الشئيين مطلقا محال هذا جار في الذوات المتماثلة ففضلا عن المختلفة فانه يستحيل أن هذا السواد ذاك السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم ، وانتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم فاصل الاتحاد إذا باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو ولا يكون إلا بطريق التوسيع والتجاوز اللائق بمادة الصوفية والشعراء فانهم لاجل تحسين موقع الكلام من الافهام يسلكون سبيل الاستعارة كما يقول الشاعر :

(أنا من أهوى ومن أهوى أنا)

وذلك مؤول عند الشاعر فانه لا يعنى به أنه هو تحقيقا بل كانه هو فانه مستغرق الهم به كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه فيعبر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز وعليه ينبغي أن يحمل قول أبى يزيد حيث قال انسلخت من نفسي . كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فاذا أنا هو ويكون معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهما فلا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله تعالى فاذا لم يحل في القلب الا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقا به يصير كانه هو لا أنه هو تحقيقا .

وفرق بين قولنا كانه هو وبين قولنا هو هو ، لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كانه هو كما أن الشاعر تارة يقول كاني من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه مزلة قدم فان من ليس له قدم راسخة في المعقولات ربما لم يميز له أحدهما عن الآخر فينظر الى كمال ذاته وقد تزين بما تلاه غيه من حلية الحق فيظن أنه هو فيقول أنا الحق وهو غلط غلط النصراني حيث رآوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام فقلوا هو الاله بل غلط من ينظر الى امرأة قد انطبع فيها صورة متلوثة فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرأة وأن ذلك اللون لون المرأة وهيئات . بل المرأة في ذاتها لا لون لها وشأنها قبول صور الالوان على وجه يتخايل الى الناظرين الى ظاهر الامور أن ذلك هي صورة المرأة حتى أن الصبي اذا رأى انسانا في المرأة طرأ أن الإنسان في المرأة فكذلك القلب خال عن الصور في نفسه وعن الهيئات وانما هيئته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق فما يحلحله يكون

كما المتحد به لا انه متحد به تحقيقا ومن لا يعرف الزجاج واخبر اذا رأى
زجاجة فيها خمير لم يدرك تباينهما فتارة يقول لآخر وتارة يقول لا زجاجة
كما عبر عنه الشاعر حيث قال :

رق الزجاج وزاقت الخمر فتشابهها فتشاكل الامسر
فكانم خمير ولا قبح وكأنما قسح ولا خمسر
وقول من قال منهم :

انا الحق فاما ان يكون معناه معنى قول الشاعر
انا من أهوى ومن أهوى

واما ان يكون قد غلط في ذلك كما غلطت النصارى في ظنهم اتحاد
اللاهوت بالناسوت وقول ابي يزيد (إن صبح عنه (سبحاني ما أعظم شأنني)
اما أن يكون ذلك جاريا على لسانه في معرض الحكاية عن الله تعالى فما
لو سمع وهو يقول (لا اله الا أنا فأعبدني) لكان يحمل على الحكاية واما
أن يكون قد شاهد كاملا لاحظ من صفة القدس على ما ذكرنا في الترقى
بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبالهمة من انحطوط والشبهات
فأخبر عن قدس نفسه فقال سبحاني ورأى عظم شأنه بالإضافة الى بيان
عظم الخلق فقال ما أعظم شأنني وهو مع ذلك يعلم ان قدسه وعظم شأنه
بالإضافة الى الخلق فلا نسبة له الى قدس الرب تعالى وعظم شأنه ويكون
قد جرى هذا اللفظ على لسانه في سكر وغلبة حال فان الرجوع الى
الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الالفاظ الموهمة وحال
السكر ربما لا يحتمل ذلك فان جاوزت هذين التأويلين الى اتحاد ذلك
محال قطعاً فلا تنظر الى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال بل ينبغي
ان تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

(واما القسم الخامس) وهو الحلول فذلك يتصور بأن يقال ان الرب
حل في العبد أو العبد حل في الرب تعالى رب الارباب عن قول الظالمين
يوهنا لو صبح لما أوجب الاتحاد ولا ان يتصف العبد بصفات الرب فان
صفات الحال لا تصير صفة المحل بل تبقى بصفة الحال كما كان وجهه
استحالة الحلول لا يفهم الا بعد فهم معنى الحلول فان المعاني المفسدة اذا
لم تدرك بطريق التصور لم يمكن ان يعلم نفيها أو اثباتها فمن لا يدرك
معنى الحلول فمن أين ينرى ان الحلول موجود أو محال فنقول المفهوم من
الحلول امران احدهما النسبة التي بين الجسم وبين مكانه الذي يكون
فيه وذلك لا يكون بين الجسمين فالبريء عن معنى الجسمية يستحيل
في حقه ذلك . والثاني النسبة التي بين العرض والجوهر فان العرض
يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما

قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى في هذا المعرض فان كل ما قوامه
ينكشف له جليلة الحق ويصير مستغرقا به فان نظرك معرفته فلا يعرف إلا
بنفسه يستحيل أن يحل في ما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة أو اقعة
بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبيدين فكيف يتصور بين العبد والرب
تعالى وإذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله
تعالى على سبيل الحقيقة لم يبق لقولهم معنى إلا ما اشرنا إليه في التبيهات
وذلك ينبع من إطلاق القول بأن معاني أسماء الله تصير أوصافا للعبد إلا
على نوع من التقييد خال عن الإيهام والا فمطلق هذا اللفظ موهب

فان قلت فما معنى قوله ان العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سائر لا
واصل فما معنى السلوك ولما معنى الوصول ؟

فاعلم ان السلوك هو تهذيب الاخلاق والاعمال والمعارف وذلك
اشتغال بعبادة الظاهر والباطن أو العبد في ذلك مشغول بنفسه عن ربه
الا انه مشغول بتصفيته باطنه ليستعد للوصول وانما الوصول هو ان
ينكشف له جليلة الحق ويصير مستغرقا به فان نظرك معرفته فلا يعرف إلا
الله تعالى وان نظرك الى همته فلا همه له سواء فيكون كله مشغولا بأكله
مشاهدة وهما لا يلتفت في ذلك الى نفسه ليعم ظاهره بالعبادة وباطنه
بتهذيب الاخلاق وكل ذلك طهارة وهي البداية وانما النهاية ان ينسلخ
من نفسه بالكلية وينجرد له فيكون كانه هو ، وذلك هو الوصول .

فان قلت الكلمات الصوفية تنبئ عن مشاهدات انفتحت لهم في
طور الولاية والعقل يقصر عن ذلك الولاية وما ذكرتموه تصرف ببضاعة
العقل .

فاعلم انه لا يجوز ان يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل
بإستحاطته نعم يجوز ان يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى انه لا يدركه
بمجرد العقل . مثاله انه يجوز ان يكشف الولي بأن فلانا سيموت غدا
ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه ولا يجوز ان يكشف بأن
الله غدا سيخلق مثل نفسه فان ذلك يحيله العقل لا انه يقصر عنه وأبعد
من ذلك ان يقول : ان الله سيجعلني مثل نفسه وأبعد منه ان يقول : ان الله
سيصيرني نفسه أي اصير أنا هو ، لان معناه اني حادث والله لا يجعلني
قديما ولست خالق السموات والارضين والله يجعلني خالق السموات
والارضين وهتينا معنى قوله غلظت فإذا أنا همو ، اذا لم يؤول
وحل على ظاهره ، وان صدق بمثل هذا الحال فقد انخلع عن غريزة
العقل ولم يتميز عنه ما يعلم عما لا يعلم فليصدق بأنه يجوز ان يكشف
ولي بأن الشريك باطلة وانها وان كانت حقا فقد قلبها الله باطلا وان جعل
جميع اقوال الانبياء كذبا وان قال يستحيل ان ينقلب الصدق كذبا
فانما يقول ببضاعة العقل فان انقلاب الصدق كذبا ليس بأبعد من انقلاب

بالحادّ قديما والعبد ربا ومن لا يفرق بين ما أحله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخس من أن يخطب فليترك وجهه .

قلنا : هذا فصل مهم جدا في بيان صوفية الغزالي ذكرناه يطوله لانه يبين بآنا شافيا أن الغزالي رحمه الله دخل في الصوفية بعلمه وعقله وان تضلعه من علم الكلام ومنطق العقل جعله لا يقبل في عقيدته ما لا يقره عقله ولا يرضاه علمه ، مهما كان مقام من صدر عنه ذلك ، فاعتداد أبي حامد بعلمه وعقله حصنه من مزالق الجموح عند الصوفية وجعله يرد في كتبه تلك الكلمة النابغة الحكيمة الجليلة (لا تنظر الى مناصب الرجب حتى تصدق بالمحال ، بل ينبغي أن تعرف الرجال بالحق لا الخلق بالرجال)

لغزالي فصل آخر في كتاب (المقصد الاسنى) تكلم فيه على معرفة الله تعالى عند الصوفية ، ورفع عنهم الإشتباه الذي قد توجه به بعض عبارات منسوبة الى أكارهم فقال : (ان خاصية الإلهية انه الموجود الواجب بذاته التي عنها يوجد كل ما في الامكان وجوده على أجسن وجوه النظام والكمال ... وهذه الخاصية ليست الا الله تعالى ولا يعرفها الا الله تعالى ، ولا يتصور ان يعرفها الا هو أو من كان مثله ، واذا لم يكن له مثل فلا يعرفها غيره .

فاذا الحق ما قاله الجليل رحمه الله تعالى ، حيث قال : (لا يعرف الله الا الله تعالى) . ولذلك لم يعط أجل خلقه الا أسماء ججبه بها يقال : سبح اسم ربك الاعلى ، فوالله ما عرف الله غير الله تعالى في العجب والاخرة وقيل لدى النون ، وقد أشرف على الموت ، ماذا تشتهي ؟ فقال (ان أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة) وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفي والتعطيل ، وذلك لمجزهم عن فهم مثل هذا الكلام .

وأنا أقول : لو قال القائل : لا أعرف إلا الله تعالى .. كانه صادقا ولو قال : لا أعرف الله تعالى لكأن صادقا . ومعلوم . ان النفي والاثبات لا يصدقان معا ، بل يتقاسمان ، الصدق والكنب ، فانه صدق النفي كذب الاثبات وبالعكس ، ولكن اذا اختلف وجه الكلام تصور الصدق في القسمين ...

فان قلت : فقولنا : انه الواجب الوجود الذي عنه وحده يوجد كل ما في الامكان وجوده عبارة عن حقيقة ، وقد عرفنا هذا ؟ فإقول : جهيات هيئات ، فان قولنا : واجب الوجود عبارة عن استغنائه عن العلّة والفاعل ، وهذا يرجع الى سلب السبب عنه ، وقولنا : يوجد عنه كل ما ويرجع الى اضافة الافعال الى الله تعالى ...

فان قيل : فما السبيل الى معرفته ؟ فإقول : لو قال لنا صبيان أو اثنين ما السبيل الى معرفة لذة الوقاع وادراك حقيقته ؟ قلنا : ها هنا

سبيلان ، أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه ، والاخر أن تصبر حتى تظهر فيك غريزة الشهوة ثم تباشر الوقاع حين تظهر فيك لذة الوقاع فتعرفه ، وهذا السبيل الثاني هو السبيل المحقق المفضى الى حقيقة المعرفة ، فاما الاول فلا يفضى الا الى توهم وتشبيه للشيء ان يسمى له ، ومهما طهرت الشهوة وذاق علم قطعا انه لا يشبه حلاوة السكر ، وأن ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذى توهمه ...

وكذلك لمعرفة الله سبيلان ، أحدهما قاصر ، والاخر مسدود ؛ أما القاصر فهو ذكر الاسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من انفسنا فاننا عرفنا انفسنا قادرين عالين احياء متكلمين ، ثم سمعنا ذلك فى اوصاف الله ، وعرفنا بالذليل ففهمناه فها قاصرا كفهم العنبر لذة الجماع بما وصف له من لذة السكر .. وفائدة تعريف الله تعالى بهذه الاوصاف ايضا ايها ، وتشبيهه ، ومشاركة فى الاسم بما لا يشبهه ... أما الايهام فانه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة ، وأما التشبيه فهو أنه شبهه بحلاوة السكر فى الاسم ، لكن نقطع التشبيه بأن يقال ليس كمثله شيء فهو حى لا كالأحياء وقادر لا كالقادرين ... وأما السبيل المسدود فهو أن ينتظر العبد أنه تحصل له صفات الربوبية كلها حتى يصير ربا ، كما ينتظر اصعبى أن يبلغ فيترك لذة الوقاع ، وهذا السبيل مسدود ممتنع ، اذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى ، وهذا هو السبيل الى المعرفة المحقة. لاغير ، وهو مسدود قطعا الا على الله تعالى وتقدس وحده ، فاذا يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله تعالى ...

فكيف يتعجب المتعجبون من ولنا : لم يحصل أهل الارض والسماء من معرفة الله الا على الاسماء والصفات ... ؟

فإن قلت : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟ فنقول : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفة الحقيقة هي أنهم يعرفونها وانهم لا يمكنهم البتة معرفته فانه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية الا الله تعالى ، فاذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه الى بلوغ المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من معرفته ، وهو الذى أشير اليه الصديق الأكبر حيث قال : (المعجز عن درك الادراك ادراك) بل هو الذى عناء سيد البشر صلوات الله تعالى عليه وسلامه حيث قال : (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولم يرد أنه عرف منه ما لا يطويعه لسانه فى العبارة عنه ، بل معناه : أئى لا أحيط بمعامدك وصفات الهيئت ، وانها أنت المحيط بها وحده ...

ويتفاوت الخلق فى معرفة الله تعالى بقد ما انكشف لهم من معلومات

الله تعالى وعجائب مقسوراته وبدائع آياته في الدنيا والاخرة
والملك والملكوت *

فاذا قد عرفت كيف تنفذت الخلق في بحار معرفة الله ، وان ذلك
لا نهاية له وعرفت ان من قال : لا يعرف الله الا الله فقد صدق ، ومن
قال : لا اعرف الا الله فقد صدق ، فانه ليس في الوجود الا الله وافعاله *

ثم ختم الامام الغزالي هذا الفصل بقوله : (ولنفيض تذبذب ايمان
فقد خضنا لجة بحر لا ساحل له ، وامثال هذه الاسرار لا ينبغي ان تبطل
بايداعها الكتب ، واذا جاء عرضها عند غير مقصود بكتف عنه *

والغزالي رحمه الله تعالى دخل الصوفية على قدم المجاهدة والرياضة
والقيام لله تعالى بحق العبودية من استدامة الاذكار والجد في وظائف
العبادات - والامان في التوكل وتكفل المتدافع في محاسبة النفس
ومراقبتها حتى كان هذا النهج معروفا به منسوباً اليه بين طوائف
المتصوفين *

ومن هنا عقد بعض متأخري الصوفية موازنة بين طريق الغزالي ،
وطريق غيره من ارباب انقلوب ، قال ابن المبارك السجستاني في كتاب
الابريز : سئل الشيخ العارف عبد العزيز الدبائح : ما الفرق بين طريقة
الولي العارف الساذل واتباعه * وطريقة الغزالي واتباعه حتى ان الاولى
مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة واد كلفة والاخرى
مدارها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرها فهل هما
سيدي متوافقان على الرياضة وانما يامر الساذل بالشكر بعد القرب للوصول
او عنده ، او هو امر بالشكر والفرح بالله من اول وهلة وحين البداية ومن
الطريقان يمكن سلوكهما لرجل واحد اولا يمكن ان ينتفع باحدهما الا
بالاعراض عن الاخرى *

فاجاب رضى الله عنه بان طريقة الشكر هي الاصلية وهي التي كانت
عليها قلوب الانبياء والاصفياء من الصحابة وغيرهم وهي عبادة الله على اخلاص
العبودية والبراءة من جميع الحظوظ مع الاعتراف بالعجز والتقصير وعدم
نزفية الربوبية حقها ويكون ذلك رقى للقلب على ممر الساعات والازمان فلما
علم تبارك وتعالى الصدق في ذلك اثابهم بما يقتضيه كرمه من الفتح في
معرفة وتبلي اسرار الايمان به عز وجل *

فلما سمع اهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو
مطلوبهم وهرغوبهم فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والنسهر ودوام
الخلوة حتى حصلوا على ما حصلوا ، فانهجرة في طريق الشكر كانت من
اول الامر الى الله والى رسوله لا الى الفتح وتبلي الكسوفات ، وانهجرة في
طريقة الرياضة كانت للفتح وهو في الاولى هجومي لم يحصل من العبد

تسويق اليه فبينما الفهد في مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب اذ جاءه الفتح المبين والطريقتان على صواب لكن طريقة 'الشكر' اصنوب واخلص والطريقتان متفقتان على الرياضة لكنها في الاولى رياضة القلوب بتعلقها بالحق سبحانه والزامها العكوف على بابه والرجاء الى الله في الحركات وانسكبات والتباعد عن الفسقة المستخللة بين اوقات الحضور .

وبالجملة فالرياضة فيها تعليق القلب بالله عز وجل على الدوام ومن ذن النذائر ثم مايس بكبير عبادة والذا كان صاحبها يصوم ويفطر ويقوم وينام ويتقارب النساء ويأتي بسائر وظائف الشرع التي تقتضيها رياضة الابدان .

ثم قال الشيخ الدباغ والغزالي امام حق وولى صدق ولاتناقى بين الطريقتين فيمكن للعبد ان يعلق قلبه بالله عز وجل في سائر حركاته وسكناته ويقيم ظاهره في المجاهدة والرياضة .

ويظهر لنا أنهما منهجان عند المتصوفة ، عبر عنهما الامام العليم أبو سعيد الخراز في قوله في بيان المعرفة والطريق الموصل اليها انها (تأتي من عين الجود ، ومن بذل المجهود) .

وقد كتب الغزالي رحمه الله تعالى في « التصوف » كما كتب في غيره من سائر الفنون والعلوم ، والمعروف المتعالم ان أشهر كتبه في « التصوف » هو اعظمها على الاطلاق كتاب (احياء علوم الدين) وقد شغل اناس خاصتهم وعامتهم بهذا الكتاب ، ولا يزالون يشغلون به ، وذكرنا ما للعلماء فيه من نقد أو مدح .

(وكتاب الاحياء) في جلالة قدره لا ينكر الغزالي ان الناس صنّفوا في بعض معانيه ، ولكنه يذكر ان كتابه يمتاز عن مصنفات الناس في موضوعه بخمسة أمور :

- ١- اول - جل ماعقدوه وكشف ما أجلوه .
- ٢- الثاني - ترتيب ما بددوه وظم ما فرقوه .
- ٣- الثالث - ايجاز ما طولوه وضبط ما قرروه .
- ٤- الرابع - حذف ما كرروه واثبت ما حرروه .

الخامس - تحقيق امور غامضة اعتاصت على الافهام لم يتعرض لها في الكتب اذا كل وان تواردوا على منهج واحد فلامستكران يتفرّد كل واحد من السالكين بالتعبئة لآخر يخصه ، ويغفل عنه رفاقه ، أولا يغفل عن اعتنائه ولكن يسهو عن ايزاده في الكتب ، أولا يسسهو ولكن

يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه
حائوا لمجامع هذه العلوم .

والناظر فى كتاب (الاحياء) مع نظره فى كتب أئمة الصوفية
الاربعة (المحاسبى - الخراز - أبى طالب الملى - القشيري) وهم الذين
تبرضنا لهم ولتتبعهم باعتبارهم الذين فيلقوا مذهب المتصوفة بعد تبديده
وضبطوه بعد انتشاره ، ونظموه بعد انشطاره حتى اكتملت مقوماته
واستقامت دعائمه فى مؤلفاتهم ، يرى ان كتب أولئك الأئمة كانت مراجع
للامام الغزالي فى تأليف (الاحياء) الى جانب علمه الغزير وعقله الكبير
وفى خزائن الصوفية يجد الباحثون مفتاح شخصية الغزالي رحمه
الله لا يشتر أن صوفى اعتنق الصوفية مذهباً ، فكتب فى احوال أهلها
ومقاماتهم ، ووطد دعائم علومهم وإنما باعتبار انفراد به الغزالي عن
سائر الصوفية ، بل عن سائر العلماء .

ذلك هو ما نسميه (فقه النفس) فالغزالي (فقيه النفس) عبقري
العقل ، ونعمى بفقه النفس غوصه على أسرار الشريعة ، وبأن حكم
احكامها بحقائق قلبية وأمور روحية تجعل من هذه الاحكام غايات محبة
تنهض اليها النفوس راغبة محبة ، وذلك ما نجده فى كثير من كتب
الغزالي ، ولا سيما درتها اليتيمة (الاحياء) ففيه من أسرار الشريعة ما لم
يوجد فى غيره من كتب الصوفية ولا كتب الفقهاء ، والى هذا المعنى
العظيم فى الغزالي يرجع انتهاؤه الى الصوفية واعتصامه بها حتى لقى
الله على خير حالاتها صوفياً عليماً ، وعليماً صوفياً .

هل شك حجة الاسلام

يجمع باحثو الغزالي على أنه رتبه الله شك وأمعن في الشك ، وهم يعمنون على اعترافات اغزالي نفسه بأنه (دام قريبا من شهرين كان فيها على مذهب السفسطة) وبأنه تطلب العلم بحقائق الامور على وجه يقيني ينكشف معه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، وبأنه فتن عن علومه فوجد نفسه عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة الا في الحسيات والضروريات وبأنه توجه الى النظر فيها ليتيقن ان ثقته بالمحسوسات ، وأمان الغلط في الضروريات من جنس ما كان نه من قبل في التقليديات ، ومن جنس امان أكثر الناس في النظريات ، أم هو امان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له ؟

وبأنه اقبل يمتحن المحسوسات والضروريات لينظر هل يمكن ان يشكك فيها نفسه ؟ وبأنه انتهى به طول التشكيك الى أنه لا ثقة بالمحسوسات ، لان حاسة البصر وهي اقواها تريك الشيء موجودا وهو غير موجود ، وانشيء غير موجود وهو موجود ، وتريك الكبير صغيرا فبطلت عنده الثقة بالمحسوسات ، فاتجه الى العقليات الاولى ، وقال : لعله لا ثقة الا بها ، ولكن المحسوسات اعترضت طريقه في ثقته بالعقليات ، وابانت له انه يحتمل أن يكون وراء حاكم العقل حاكم آخر اذا ظهر يكذب العقل في حكمه وعدم ظهور ذلك لا يدل على استحالة .

وبأنه لما خطرت له هذه الخواطر وانقدحت في النفس حاول علاجها فلم يتيسر له اذ لم يمكن دفع ذلك الا بدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولية وهي المحسوسات والعقليات الضرورية ، فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب دليل ، فاعضل عليه هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين كان فيها على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

هذه هي اعترافات ابي حامد على نفسه في الشك ملخصة من كتابه (المنقذ من الضلال) والاعتراف - كما يقولون أقوى أدلة الاثبات .

وكذلك اعتمد باحثو ابو حامد فى شكه على قوله فى آخر كتابه .
(ميزان العمل) (ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكبك .
فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعا اذ اشسكوك همى .
الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن
لم يبصر بقى فى العمى والضلال) .

وهذا تحسين بانخ للشك ، لانه جعله موصلا للحق ، والحق عنده
هو اليقين الذى لا ريب فيه ، ولا يمكن معه القلط ، وجعل الشك طريق
النظر الموصل الى ابصار الحقائق للخروج من العمى والضلال .

واذا كان يرى ذلك طريقا لغيره فبالجلى ان يكون طريقه هو الى
معلوماته ونحن نقف من هذا الموضوع عند ابي حامد موقفه الشك فيه
معتمدين على ان بعض الباحثين يرون ان الشك بدأ مع انغزالي منذ
انخلت عنه رابطة التقليد فى سن قريبة عهد بسن الصبا ، وقد صرح
بذلك الاستاذان (كامل عياد) و (جميل صليبة) فى مقدمتهما لكتاب
(المنقذ من الضلال) وذلك كان - فى نظرهما - قبل مفادته نيسابور
للمرة الاولى فى وقت تلمذته لامام الحرمين .

. ويرى (ديبور) فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، هذا انراى .
وبعضهم يذهب الى ان الشك تملك ابا حامد بعد خروجه من نيسابور
الى المعسكر فى المدة التى اقامها فى حضرة نظام الملك .

وهذا الاضطراب يدل على عدم تحقيق هذه المسألة فى حياة الغزالي ،
فلم يبق الا اصل وجودها المعتمد على اعتراف ابي حامد .

ولنا توجيه فى اعتراف ابي حامد ببرئه من الشك ويصحح
الاعتراف ، ذلك ان - ابا حامد يقصد بهذا الكلام الذى شرح فيه اعترافه
الى 'ن'ون من الاسلوب فى الحجاج وكان كثير الخصوم فى الجدل والمناظرات ،
فأراد بذلك ان يكسر شوكة خصومه عن طريق الايحاء ، ويعتد هزة
فكرية فى المجتمع الذى كان ميدان فضاله ، كما يقصد الى التمهيد الى
الجديد من افكاره حتى يأمن ثورة العامة ، ويقصد الى تشكيك الناس فى
الفلسفة التى انتهض للرد عليها ، والفلسفة انما تعتمد على أدلة العقل
وبراهينه .

ومما يرشح ما ذهبنا اليه ان الغزالي فى هذه الفترات التى يزعم
الباحثون ان الشك تملك فيها الشيخ الامام كان اصبح نفسا واقسوى .
عارضة ، واصلب قناة امام خصومه ، والشك لا يمكن ان تكون معه .
هذه القوة ، ولكن الغزالي كان قويا مع خصومه ، قويا فى مصنفاته .
وتأليفه .

وقد تنبه الإسماعيليون (سليمان دنيا) في كتابه (الحقيقة في نظر الغزالي) إلى ذلك فقال ، (وما يثير الدهشة ان شبكا في الحقيقة بصبر تأليف إيجابية حول الحقيقة ، ويدرس حول الحقيقة تدريسا إيجابيا) . ثم قال : (نكتي الاحظ على الغزالي في نقده للفلسفة انه غير مستحيب لداعي شكه ، لان قارئ كتاب التهافت يلاحظ ان صاحبه لا يزال غفيلة ألهم فحسب ، بل هو يهدم ليفتح المجال لشيء معه لا يقوم على هذه الانقاض)

وذلك حيث يقول الغزالي : (ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب الا تكذيب مذهبيهم ، واما اثبات المذهب الحق فسنصنف فيه كتابا بعد الفراغ من هذا ...) . ونعني فيه بالاثبات كما اعتنينا في هذا بالهدم) وهذا واضح في ان الغزالي كان متشبها من نفسه في هدمه لمذهب الفلسفة ، ومتشبها من نفسه في عزيمته اقامة بناء عقيدتي يحل محلها ، فاین أثر الشك عند الغزالي ؟

على ان شك الغزالي في اعترافاته لم ينصب على عقيدته وانما انصب على مسالك العقيدة ، والعقيدة موجودة عند الغزالي قبل نظره في هذه المسالك ، ثم تشكيك الغزالي في مسالك الادلة ضعيفا ، لان الغزالي لا يغيب عنه ان البصر آلة ادراك للمجسوسات وتختلف باختلاف قوتها الخلقية ، وباختلاف قرب الاشياء وبعدها عنها ، وليس ذلك تفضيلا في حقيقة العلوم ، وانما هو نقص في الآلة وقوله في العقل اضعف من قوله في الحس ، لانه مبني على فرض وتخيل ، لم يجد ما يقويه به الاحالة النوم والا ما يدعيه الصوفية من حالة ادراكية فوق ادراك العقل .

وكان ابا حامد رضي الله عنه اراد ان يخلص إلى هذه النقطة العظيمة في حياته بالتمهيد لهذا القول في الشك ، تلك النقطة التي غيرت حياة ابي حامد تغييرا كبيرا ، ونعني بها صيرورته إلى التصوف والصوفية تخلصا من حياته الاجتماعية التي عاشها طوال عمره الا قليلا مما أدركه في ظل الصوفية من الهدوء النفسي والعقل وكان ابو حامد مشتتيا في حياته الاجتماعية يقيود صعبة ، لا يخلص منها الا بضرب من هذا اللون الفكري الذي يضعف القيود الاجتماعية ويهدم الطريق امامه للخلاص منها .

وهذا موضوع يحتاج إلى بحث خاص ، وله أهميته في حياة ابي حامد ونرجو ان تتمكن من تحقيقه اذا انشأ الله في الاجل ، وانما قصصنا هنا إلى التنبيه لعل احدا من المتابعين يثبهم عن ساعد الجهد فيحقق هذا الجانب من حياة هذا العبقري الذي شغل الدنيا بعلمه وعقله وروحه . رحم الله ابا حامد ورضى عنه وانزله منازل الصادقين .

فتاوى وآراء حسنة

والامام الغزالي يميل الى حرية العقل ، والانطلاق في التفكير ، وانه آراء مستقلة في كثير من مسائل الدين يخالف فيها رأى الجمهور من العلماء ولكنها منصفة بالدليل والبرهان .

ومن هذه المسائل اتى اجاب فيها الغزالي برأى مستقل عن المصنبة المنحبية ما أورده ابن خلكان في ترجمة الكيا الهراسى اذ يقول . وسئل الكيا عن يزيد بن معاوية فقال انه لم يكن من الصحابة لانه ولد في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأما قول السلف في لعنه ففيه لاحمد قولان تلويح وتصريح والمالك قولان تلويح وتصريح ولا يى حنيفه . قولان تلويح وتصريح وننا قول واحد التصريح دون التلويح وكيف لا يكون كذلك وهو اللاهج بالنرد والمتصيد بالفهود ومذ من الحقن وشعره في الحجر معلوم ومنه قوله :

أولاً لصحباً ط ، الكاسى شملهم :

وداعى صبايات الهوى يترنم

خسبوا بنصيب ن نعيم وللة :

فكل وان طال المدى يتصرم

ولا تتركوا يوم السرور الى غد :

فرب غد يأتى بما ليس يعلم

وكتب فصلا طويلا ثم قلب الورقة وكتب لو تمددت ببيانات الممدت

المنان في مخازى هذا الرجل .

داى الغزالي

وقد افتى الامام ابو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في مثل هذه المسئلة بخلاف ذلك فانه سئل عن صريح بلعن يزيد بحكم نفسه ام هل يكون ذلك مباحا له فيه ؟ وهل كان مريضا قتل الحسين رضى الله عنه ، ام ثلاث قضيتهم النفع ، وهل يسوغ الترحم عليه ام السبوت عنه افضل ، تدسم بالالة الاقتبابة مثابا فاجاب لا يجوز لعن المسلم أصلا ومن لعن مسلما فهو ملعون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلم ليس بكافا او كيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن الكفار) وقد ورد النهى عن ذلك وحرمة المسلم اعظم من حرمة الكعبة بنص النبي صلى الله عليه وسلم ، ويزيد صبح اسلامه وما صبح قتله الحسين رضى الله عنه ولا ازميه ولا رضاه ومهما لا يصح منه لا يجوز ان يظن ذلك به كان اسامة الظن بالمسلم ايضا حرام . وقد قال تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم من المسلم دمه وقبالة وعرضه وان يظن به ظن المتنوء) ومن زعم ان يزيد كافر يقتل الحسين رضى

الله عنه أو رضى به فينبغى ان يعلم به عاية الحمافه فان من عتل من الا مبر
والوزراء واسلاطين فى عصره لو اراد ان يعلم حقيقه من احدى امر بعدله
ومن احدى رضى به ومن الذى كرهه لم يقرر على ذلك وان كان احدى من
قتل فى جواره وزمانه وهو يشاهد ، فليف نو لى فى بلد بيته
وزمن قديم قد انقضى ؛ فكيف يعلم ذلك فيما انضى عليه مريب
من اربعمائه سنة فى مكان بعيد ؛ وقد تطرق التنصب فى الواقع
فشرت فيها الاحاديث من الجوانب فهذا الامر لا يعلم حقيقته اصلا
واذا لم يصرف وجب احسان الظن بكل مسلم يمكن احسان
الظن به ومع هذا نو ثبت على مسلم انه قتل مسلما فذهب اهل الحق انه
ليس بكافر ، وانقتل ليس بكفر بل هو مصيبة ، واذا مات القاتل فربما
مات بعد التوبة والكافر لو تاب من كفره لم تجز لعنته فكيف من تاب عن قتل
ولم يعرف ان قاتل الحسين رضى الله عنه مات قبل التوبة (وهو الذى
يقبل التوبة عن عباده) فاذن لا يجوز لمن احد ممن مات من المسلمين
ومن لونه كان فاسقا عاصيا لله تعالى ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصيا
بالاجماع بل لو لم يلعن ابليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة لم لم
تلعن ابليس ويقال للعلن لم لعنت ومن أين عرفت انه مطرود ملعون
والملعون هو البعيد من الله عز وجل وذلك غيب لا يعرف الا فيمن مات
كافرا ، فذ ذلك علم بالشرع وأما الترحم عليه فجائز بل هو مستحب
بل هو داخل فى قولنا فى كل صلاة اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات فانه
كان مؤمنا والله اعلم .

ومن هذه المسائل ما ذكره فى كتاب (فيصل التفرقة بين الاسلام
والزندقة) اذ يقول : (وأنا أقول انى للرحمة تشمل كثيرا من الامم
السالفة ، وان كان اكثرهم يعرضون على النار ، اما عرضة خفيفة حتى
فى لحظة أو فى ساعة ، وأما فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار، بل
أقول : ان اكثر نصارى الروم والترك - يقصد كل من بعثت دياره عن دار
الاسلام ولم تبلفهم الدعوة فانهم ثلاثة اصناف صنف لم يبلفهم اسم
محمد صلى الله عليه وسلم اصلا فهم معذورون ، وصنف بلفهم اسمه لعنته
وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون لهم
وهم الكفار الملحنون وصنف ثالث بين الدوجتين بلفهم اسم محمد صلى
الله عليه وسلم ولم يبلفهم لعنته وصيفته بل سمعوا منذ الصبا أو صافا
ضد أوصافه الجميلة ، فهؤلاء عندي فى معنى الصنف الاول ، أى أنهم
معذورون ناجون ان شاء الله .

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، والله ولى التوفيق

تم تحرير يوم فى مساء يوم الجمعة ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ

الموافق ٢٧ من شهر ابريل سنة ١٩٦٢ م

من الشرق والغرب

تقديم

العالم والغرب

للمؤرخ الإنجليزي الكبير
أرنولد توينبي

ترجمة: عبد الواحد الإنبالي
مراجعة: صالح جودت

الدار القومية للطباعة والنشر

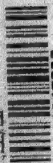
١٥٧ شارع عيسى - روض الفرج

تليفون: ٤٥٤٤٦ - ٥٤٠٥ - ٣٤١٦٢



١٥٧ شارع عبید - روض الفرج
تليفون: ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

Bibliothèque Alexandrina



0247595

المن ١٠ قرشا

العدد ٩